

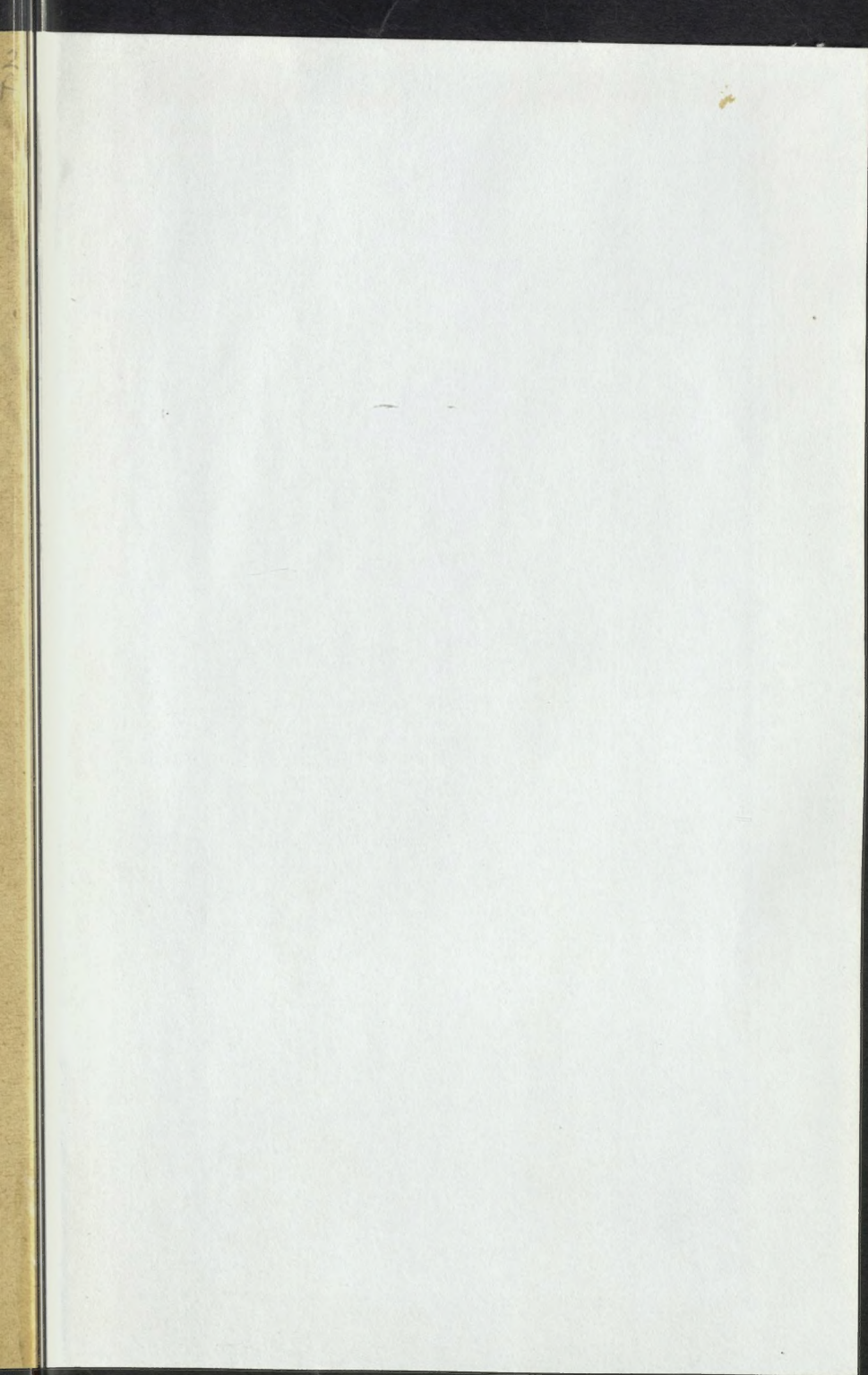
J B LIBRARY

AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT





LIBRARY





# معركة الإسلام والراشمالية

سَيِّدُ قُطْب



القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م

الطبعة الثانية { رجب ١٣٧١  
{ أبريل ١٩٥٢





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا  
مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ »  
« فَدَمَرْنَاَهَا تَدْمِيرًا »

(قرآن کریم)

THE  
LIBRARY  
OF THE  
MUSEUM OF  
COMPARATIVE ZOOLOGY  
(1880)



## صِيحَةُ النَّذِيرِ

هذا الوضع الاجتماعي السيء الذى تعانیه الجماهير فى مصر . .  
غير قابل للبقاء والاستمرار . . هذه حقيقة يجب أن تكون معروفة من  
الجميع ، كى يمكن السير بعد ذلك على هداها فى الطريق الصحيح .  
نعم ! غير قابل للبقاء والاستمرار ، ذلك أنه مخالف لطباع  
الأشياء ، لا يحمل عنصراً واحداً من عناصر البقاء ، يلى له فى الأجل ،  
ويهيء له فرصة البقاء .

إنه مخالف لروح الحضارة الإنسانية بكل معنى من معانيها ،  
مخالف لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته ، مخالف لروح العصر  
بكل مقتضى من مقتضياته . ذلك فوق مخالفته لأبسط المبادئ الاقتصادية  
السليمة . ومن ثم فهو معطل للنمو الاقتصادى ذاته ، بله النمو الاجتماعى  
والإنسانى .

وكل وضع اجتماعى يكون من نتائجه شل قوى الأمة عن العمل  
والإنتاج ، فتعويقها بهذا عن النمو والتقدم . . هو وضع شاذ ، لا يفقد  
فقط حقه فى البقاء ، بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء . فكيف  
إذا اجتمع إلى هذه الآفة ، أنه يهدر الكرامة الإنسانية ، ويفسد الخلق  
والضمير ، ويقضى على كل معانى العدالة ، ويقتل الثقة الضرورية



في المجتمع والدولة ، وينشر القلق ، ويذهب بالاطمئنان ؟  
 إن الذين يتشبثون اليوم بهذا الوضع الشاذ ، ويحاولون أن يقيموا  
 له الأسناد ؛ سواء كانوا من المستغلين ، الذين يعز عليهم أن يساهموا  
 في التكاليف والأعباء الضرورية لإقامة المجتمع الصالح وصيانتة ؛  
 أو من الطغاة الذين يصعب على نفوسهم أن تجرى العدالة مجراها ،  
 فتحرمهم أسباب السلطان الزائف الذي لا يقوم على أساس ؛ أو من  
 المستمتعين الذين مردوا على المتاع الفاجر ، فهم لا يطيقون القصد فيه  
 والاعتدال ؛ أو من رجال الدين المحترفين ، الذين باعوا أنفسهم لا لله  
 ولا للوطن ، ولكن للشيطان ، ولمن يتقدم فيها ثمنًا بخسًا دراهم  
 معدودات . . . إن هؤلاء جميعًا إنما يحاولون ملا قبَل لهم به ، لأنهم  
 يحاولون ضد طبائع الأشياء ! إنهم إنما يُلقُونَ بأيديهم إلى التهلكة  
 لأنهم يضيعون كل فرص السلامة السانحة المتاحة . وباليتم يذهبون  
 وحدهم حين يذهبون ؛ ولكنهم سيذهبون ومعهم هذه الأوطان  
 المنكوبة ، ما لم تأخذ هذه الأوطان على أيديهم وفي الوقت متسع ،  
 قبل أن يحق عليها النذير الصادق الحاسم : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ  
 قَرْيَةً ، أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ، فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا  
 تَدْمِيرًا » .

إن الحقائق الواقعة لاتعالج ، كما نعالجها نحن اليوم ، بالخطب  
 الوعظية ، أو الفتاوى المحتملة ؛ كذلك لاتعالج بتكسيم الأفواه ، وتحطيم



الأقلام .. إنما تعالج بحقائق واقعة تقابلها وتغيرها . والمعدات الجامعة  
لا تفهم المنطق — حتى ولو كان منطقاً صحيحاً لا احتيال فيه ولا التواء —  
وعليها أن نذكر هذا قبل فوات الأوان . ولقد أوشك والله أن يفوت الأوان !  
فليقل من شاء كيف شاء : من الطغاة المستغلين ، ومن رجال  
الدين المحترفين ، ومن الكتّاب المرتزقين ، والصحفيين المأجورين :  
إن الدعاة إلى إصلاح هذا الواقع الاجتماعى السيئ ، الشيوعيون ،  
أو خارجون عن القانون ، أو خطرون على الأمن والنظام ، أو دعاة  
هدم وفوضى ؛ وليحاربوهم بكل الوسائل الجهنمية ، التى يملكها الطغاة  
فى كل زمان ومكان ، ليذبحوا بهم فى المعتقلات والسجون ، وليعطلوا  
لهم الصحف والأقلام ، وليحاربوهم فى أرزاقهم وأقواتهم ، وليسدلوا  
الستار على حياتهم وذكراهم .

إن صوتاً سيرتفع بعد ذلك كله ، ولن يمكن إسكاته أبداً : صوت  
المعدات الخاوية ، التى تملأ جنبات هذا الوادى . صوت الملايين التى  
تبذل العرق والدماء ، ولا تنال مقابلها لقمة الخبز جافة ، ولا خرقة  
الكساء متواضعة . صوت الجوع التى لم تقرأ فى حياتها كلمة واحدة  
عن الشيوعية أو غير الشيوعية ؛ ولكنها جوع من الأحياء ، تطالبهم  
معداتهم بلقمة الخبز ، وتطالبهم جلودهم بخرقة الكساء .

سيبقى صوت واحد لا يخفت — ولو خفتت جميع الأصوات —  
صوت الواقع الذى ينطق بلسان الملايين من تلك القطع الآدمية المحطمة

الزرية ، التي مسختها تلك الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، فحرمتها حتى حاسة الإحساس بالظلم ، وحتى شعور الإنسان بالحرمان .

نعم ! وصوت مئات الألوف من الحطام الآدمي المتناثر في الطرقات ، اللاصق بالجدران ، الباحث عن الفتات في صناديق القمامة مع القطط الضالة والكلاب . ذلك الحطام المشوه الخِلَقَة ، المقرح الجِلد ، المسمول الأعين ، الشارد المتلصص ، أو الذليل المتسول . . هنا وهناك في كل مكان .

ذلك بينما الترف الفاجر الداعر يعربد في المواخير والقصور ؛ والذهب المتجمد من دماء الملايين ، يبعثر على الموائد الخضروفي حجور الفواي ؛ والأرباح الفاحشة تعجز أربابها عن العد والإحصاء ببله الإنفاق والاستهلاك !

من ذا الذي يستطيع أن يقول : إن وضعاً اجتماعياً تلك ثماره المتعفنة الخبيثة يمكن أن يدوم ، مهما أقيمت له الأسناد المنتحلة من فتاوى محترفين ، أو مقالات المرتقة المأجورين ، أو عسف الطغاة والمستغلين ؟

إنه عبث . عبث ضائع . عبث ضد طبائع الأشياء .



## إني أخصم

.. أتتهم هذه الأوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الأمة عن العمل والإنتاج ؛ وتُسَمِّع فيها البطالة والتعطُّل ؛ وتقعدُها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية ؛ وتؤدي بها إلى الضعف عن مواجهة الأخطار الداخلية والأخطار الخارجية ، التي تزايد وتبرز على مر الأيام . إن أرضنا تملك أن تنتج أضعاف ما تنتج من غلات . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لأن هذه الأرض لا تزال موزعة كما كانت موزعة في أظلم عهود الإقطاع ، فهي محتكرة في أيدي قليلة لا تستغلها استغلالاً كاملاً ، ولا تدعها للقادرين على استغلالها ممن لا يملكون شيئاً .. دع هذه الأرض تخرج من هذا الاحتكار ؛ وتداولها الأيدي المتعطلة التي لا تجد ما تعمل .. حينئذ تتبدل الحال غير الحال .

وإن الأرض الصالحة للزراعة ليتمكن أن تتضاعف . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لأن مشروعات الري والصرف الكبرى معطلة لا تنفذ ! لماذا ؟ لأنها تحتاج إلى المال ، والمال في أيدي الرأسماليين ؛ والدولة تشفق أن تحمل رؤوس الأموال نصيبها الواجب من الأعباء . لماذا ؟ لأن الدولة لا تمثل الجماهير المحتاجة ، إنما تمثل رؤوس الأموال .. دع مقاليد الحكم للشعب حقاً . حينئذ سيجد الشعب في خزائنه من حصيلة

الضريبة العادلة ، ما يصلح به الأراضي البور ، في فترة معقولة من الزمان .  
وإن هذه الأرض لتحتوى كنوزاً من الخامات والقوى المعطلة  
التي لا تستغل . لماذا ؟ لأن الدولة فقيرة وعاجزة وغير جادة ومشغولة .  
فقيرة لا تجد المال ، لأن ميزانيتها تعتمد على دخول الجمارك التي يؤديها  
الفقراء قبل الأغنياء ؛ ولا تعتمد على ضرائب الدخل المباشرة التي  
يؤديها الأغنياء قبل الفقراء ! وعاجزة لأن أدايتها الإدارية فاسدة .  
أفسدتها الاستثناءات والمحسوبيات ، وسوء النظام ، وبلادة  
« الروتين » ؛ كما أفسدتها الرشوة ، وفساد الذمة ، وتعمق الضمير .  
وغير جادة ، لأنها لا تحس حافزاً يدفعها إلى زيادة الثروة القومية العامة ،  
مادام الأثرياء الذين تمثلهم يحسون التخمة ، ويعجزون عن تصريف  
ما في أيديهم من ثروات . ومشغولة . مشغولة بذلك الصراع الحزبي  
في حلبة الأقرام ، التي أقامها الاستعمار منذ ربع قرن باسم الدستور !  
ووقف يتفرج ويتسلى ، كما كان الأشراف في القرون الوسطى يتسلون  
بصراع العبيد والأقرام . ثم هي مشغولة بحماية تلك الأوضاع الاجتماعية  
الشاذة المناقضة لطبيعة الأشياء ، والتي تحتاج إلى جهد ضخم من الأداة  
الحكومية العاجزة الفاسدة الشلاء .

وإن في هذه الأرض من الثروات البشرية والقوى الإنسانية  
ما لا يقل عما فيها من الخامات والقوى . ولكن أحداً لا يستغلها  
ولا يلتفت إليها . لماذا ؟ لأن المصلحة العاجلة للسادة الرأسماليين الذين



تمثلهم الدولة ، لا تقتضى استغلال هذه القوى ولا استنقاذها من التبطل والضياع . فهي تدعها للجهل والمرض والفقر تأكلها أكلاً ، ثم تدعها للتبطل يحيلها مخلوقات تافهة : إما مشردة فى الطرقات ؛ وإما جالسة على المقاهى والحانات ؛ وإما عاملة كمتعطلة لا تنتج إلا التافه اليسير مما تملك أن تنتج ؛ لأن النظام الذى تعمل فى ظله نظام فاسد ؛ ولأن الأجور التى تتناولها لا تحفز إلى الإخلاص ؛ ولأن المستقبل الذى ينتظرها ظلام فى ظلام . والدولة لا تحاول أن تعمل شيئاً جدياً لاستنقاذ هذه الثروات المبددة الضائعة فى سفه وإسراف .

ذلك أن استنقاذ هذه الثروة القومية من القوى البشرية يكلف رؤوس الأموال بعض التكاليف . ودون هذا وتقف الدولة متحجرة واجهة خاشعة !

وهكذا يدور دولا ب العمل فى الدولة وفى الشعب ، لا لیسد حاجة سكانها جميعاً ، بل لیسد حاجة حفنة قليلة هى القادرة وحدها على الإنتاج وعلى الاستهلاك . ولا تعمل الدولة ولا الأمة لرعاية المصالح الضخمة لعشرين مليوناً من السكان ، بل لرعاية المصالح المحدودة لفئة منها معدودة .

ثم يتزايد السكان وتتناقص الغلة ؛ لا اعجز فى طبيعة الأمة عن العمل ، ولا لنقص فى كفاياتها واستعداداتها الفطرية ؛ ولكن تبعاً لهذا الاختلال فى توزيع الثروة القومية ، وفى توزيع المفاسم والمفاسد ؛

ومن ثم تتخلف والدنيا تركض ، ونضعف وخصومنا على الأبواب  
تزايد قدرتهم على الاعتداء ؛ وتهبط كرامتنا الدولية يوماً بعد يوم ،  
ونحن نتحلق ونتصايح : يحيا ويسقط ، حول الصراع الحزبي القافه  
في حلبة الأفرام !

\*\*\*

إني أتهم .. أتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها تهدر الكرامة  
الإنسانية ، وتقضى على كل حقوق الإنسان .

ومن ذا الذى يجرؤ على القول بأن هؤلاء الملايين من الفلاحين  
الجياع العراة الخفاة ، الذين تأكل الديدان أحشاءهم ، وينهش الذباب  
مآقيهم ، وتمتص الحشرات دماءهم .. ناس . يمتنعون بكرامة الإنسان  
وحقوق الإنسان ؟

من ذا الذى يجرؤ على القول بأن هؤلاء الصبية الذين يجمعون من  
القرى والكفور للعمل فى « التراجيل » لتنقية المزارع فى الدوائر  
والتفاتيش من الآفات ، وجسومهم تنغل بالآفات ، وينقلون عشرات  
الأميال ومثاتها بعيداً عن أهلهم — حيث يعودون أولاً يعودون —  
لامتطوعين ولا مختارين ، ولسكن قسراً وغصباً ، فى مقابل القروش  
والملايم التى يؤكل نصفها قبل أن تصل إلى أيديهم الهزيلة النحيلة .  
من ذا الذى يقول بأن هؤلاء ناس لهم كرامة الإنسان وحقوق  
الإنسان ؟ !



من ذا الذى يجرؤ على القول بأن الملايين من « الأنفار »  
فى دوائر الإقطاع ناس ، والسيد المالك يملك أن يحبى ويميت ، وأن  
يمنع ويمنح ، وأن يرزق ويرزأ ، والعبيد لا يملكون شيئاً ، حتى ولا حق  
البقاء فى الدائرة ، ولا التعويض الضئيل عند الطرد من الرحمة . فإذا  
غضب السيد — بل عامله — فقد طرد « النفر » مع زوجه وأولاده ،  
وقد سلبت منه جاموسه ، وقد عاد كوخه إلى السيد المالك الذى أنعم به  
عليه ؛ وخرج هو شريداً طريداً من رحمة الأرض جميعاً !

من ذا الذى يجرؤ على القول بأن مئات الألوف من العجزة  
المتسولين ، الباحثين عن الفتات فى صناديق القمامة ، العراة الجسد ،  
الحفاة القدم ، المعقرى الوجوه ، الزائغى النظرات . . ناس لهم كرامة  
الإنسان وحقوق الإنسان ؟ وهم لا يجدون ما تجده كلاب السادة  
فى بيوت السراة !

من ذا الذى يجرؤ على القول بأن هؤلاء الألوف من الخدم فى  
البيوت ، و « الخدمة السائرة » فى الدواوين ، الذين يحرمهم القانون حتى  
حق تكوين النقابات ، لأن السادة يأبون عليهم هذا الحق ، كى لا يتجرأ  
العبيد على الأسياد ، وكى لا تكون لهم حقوق — ولو نظرية —  
يرفعون بها جباههم فى وجوه الأسياد . . .

من ذا الذى يجرؤ على القول بأن هؤلاء ناس ، لهم حقوق  
الإنسان وكرامة الإنسان ؟ !

ودعك بعد هذا من تلك الخرافة التي تتحدث عن « الأمة مصدر السلطات » وعن حق الانتخاب وحرية الاختيار . . إنها خرافة لا نستحق المناقشة ، فهذه الأمة مصدر السلطات هي هذه الملايين الجائعة الهزيلة ، الجاهلة المستغفلة . هذه الملايين المشغولة نهارها وليلها بالبحث عن اللقمة . الملايين التي لا تملك أن تفيق لحظة لتفكر في ذلك الترف الذي يسمونه حق الانتخاب وحرية الاختيار . الملايين التي يشير لها السادة فتنخب ، ويشير لها السادة فتمتنع ؛ لأن هؤلاء السادة هم خزنة أرزاقها وأقواتها ؛ وملاك الإقطاع الذي يؤوى هؤلاء الجياع !

إنها خرافة أن تتحدث في عهود الإقطاع عن الدساتير والبرلمانات . ونحن نعيش في عهود الإقطاع بكل مقوماتها ؛ لا ينقص منها شيء إلا تبعات السيد تجاه رقيق الأرض ، فقد سقطت عنه هذه التبعات في عصر الدستور ! أجل فلقد كان السيد فيما مضى مسؤولاً عن رقيقه ، يزوّج بناتهم ويمنحهن ؛ ويعالجهم إذا مرضوا ، ويؤدى عنهم نفقات الجنائز والأعياد . . فأسقط عهد الدستور كل هذه التكاليف عن كاهله ، وأبقى له الرقيق ، يأكل من أبدانهم ما يشاء كيف شاء !

إن الحديث عن الدساتير والبرلمانات يصلح مادة فكاهة ، يتسلى بها الفارغون . ولكنه لا يصلح حديث أمة تريد الجِد ، وتنظر إلى الواقع بعين الاعتبار !



إني أتهم . . أتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها تفسد الخلق والضمير ، وتشيع الفساد في المجتمع والدولة ، وتؤدي إلى الانحلال الفردي والقومي .

إن تضخم الثراء في جانب ، وبروز الحرمان في جانب ، من شأنه أن يخلق طبقة من الأثرياء الفارغين المتبطلين ، الذين يجدون لديهم وفرة من المال ، ووفرة من الوقت ، ووفرة من الطاقة الجسدية التي لا بد لها من متصرف .

والطاقة التي لا تصرف في العمل ، والتي لا تشغلها فكرة أعلى من الذات ، لا بد أن تجد لها طريقاً آخر : طريق المتاع الجسدي الغليظ ، والرفاهية المترفة الناعمة ، والموائد الخضر والسباق ، والسكر والعريضة والاستهتار . . .

وماذا يصنع أولئك الفتيان المرد ، وأولئك الشيوخ المترهلون ، الذين تجبى إليهم ثمرات السكد والعرق والدماء ، من جهود الألوف الجياع الحفاة العراة . . ماذا يصنع أولئك وهؤلاء بتلك الألوف والملايين التي تصل إليهم وهم قاعدون ؟ ماذا يصنعون ولم يظهر العمل قلوبهم وأيديهم ، ولم يشغل العمل أفكارهم ومشاعرهم ؟ ماذا يصنعون إلا أن يفسكروا في لذائذ الحس ، وشهوات الجسد ، والترف الناعم الرخيص ؟ وهم يملكون قوة الإغراء . . المال . . وعلى الضفة الأخرى أولئك المحرومون التاعسون ، ضعفاء أمام ذلك الإغراء ، طلاب حياة

وطلاب متاع كذلك ، لا يجدون إليهما سبيلا من وجه شريف . . .  
فالشرف آخر حرفة في مصر تدر على أصحابها الكفاف !

عندئذ ينقسم المحرومون والمحرومات فريقين : فريق السامسة  
وفريق الضحايا . فريق القوادين وفريق الرقيق — ولا عبرة بالفريق  
الثالث : فريق الشرفاء الذي يأبى أن يخضع للإغراء العنيف .  
إنه فريق الذين لا يريدون الحياة ولا يريدون المتاع ! أو فريق الأبطال  
والقديسين . وما كل الناس ولا كثرتهم أبطال ولا قديسون !

ولا بد من حاشية وأذيل ، لأولئك الفتيان المرد ، وأولئك الشيوخ  
المترهلين . لا بد من حاشية تملق كبرياءهم ، وتؤمن على سخافتهم  
وحماقتهم . وهم واجدون هذه الحاشية في ذلك الحطام الآدمي التافه ،  
الذين أحوالهم الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ديداناً طفيلية وإمعات !

وهكذا تتكون حلقة مفرغة ، من الشباب الفارغ والشيخوخة  
الآسنة ، ومن الرق الأبيض والنخاسة القذرة ، ومن الملق الحقير وفناء  
الشخصية والانحلال .

وندع هذه الحلقة الآسنة ، لتقع العين على حلقة أخرى نشيطة  
متحركة عاملة . ولكن للشيطان وفي حقل الشيطان . حقل الرشوة  
والارتشاء . حقل السرقة والاختلاس وفساد الضمير .

إنه العوز في جانب والإغراء في جانب . إنه الموظف ذو العيال  
الذي يلهب الغلاء ظهره بسياطه السكاوية ؛ ويمتص عصارة قلبه ودمه ،



ليسلمها إلى السادة الممولين ، الذين تميمهم الدولة بتشريعاتها ،  
وتعمل لحسابهم وحدهم لا لحساب الجماهير . إنه ذلك الخلق الضعيف  
وأمامه إغراء المال الحرام . المال الذي يريد أن يتضاعف بالغبش  
والسرقة والتهريب والاحتكار .

وقد لا يقف الفقر هكذا أمام الثراء . إنما يقف المال أمام المال .  
تقف المصلحة المشتركة بين الغنى الفاحش والغنى الفاحش . تقف  
المؤامرة على حقوق الجماهير ومصالح الجماهير . الجماهير الضعيفة التي  
لا تملك شيئاً تدود به عن نفسها في المعركة ، حتى ولا قوة اليقظة والانتباه !  
وهذه قضايا الذخيرة الفاسدة في الجيش ، وتهريب التمرين إلى  
إسرائيل ، والاختلاسات في الأموال العامة . . . هذه هي تقشع لقطارتها  
وبشاعتها النفوس . ولسكنها في صميمها ليست منفصلة عن الأوضاع  
الاجتماعية القائمة ؛ فهي ثمرتها الطبيعية التي لا تثمر سواها ؛ وما يمكن  
أن تختل موازين العدالة الاجتماعية هذا الاختلال ، ثم تبقى للمجتمع  
قواه الخلقية ومبادئه ومثله . إنما هي الحياة الآسنة يصب فيها الوحل  
والقذى ، وتنمو على حوافها الحشرات ، وتنسل في جوفها الديدان ؛  
ثم تتسع وتتسع حتى تحيل المجتمع كله بركة من الوحل المنتن العفن ،  
تغوص فيها الضمائر والأخلاق ، وتفرق فيها القوميات والأوطان .  
وهنا ينبعث السادة الأجلاء من هيئة كبار العلماء ، من سباتهم  
الطويل العميق ، ينعون الأخلاق الضائعة والفواحش الشائعة ،

ولا يدعون ثبوراً واحداً بل يدعون ثبوراً كثيراً ! فلننصرف إلى السادة  
الأجلاء لحظة نسمع منهم الوعظ الشريف ، ترويحاً للنفس عن ذلك  
الجد الكريه الذى نعانيه !

هذه بعض عريضتهم إلى رئيس الحكومة فى يوم من الأيام :  
« وإن الناظر فى حال أمتنا العزيزة ، وما آل إليه أمر الدين  
والخلق فيها ، ليهوله ما يرى ، ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذى  
صارت إليه ، ويخالجه كثير من الإشفاق على مستقبلها الذى هى مقبلة  
عليه . فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيهِ ؛ وجنحوا إلى ما يخالف  
تقاليد الإسلام ؛ ودخل على كثير منهم ما لم يكن يعهد من أخلاق  
الإباحية والتحلل ، جرياً وراء المدنية الزائفة ، واغتراراً بريقها الخادع ؛  
وكثرت عوامل الإفساد والإغراء فى البلاد ، ولا سيما أمام ناشئتها  
وفتيانها ، المرجوين للنهوض بها ، والأخذ بيدها فى حاضرها ومستقبلها ؛  
فمن حفلات ماجنة خليعة ، يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة  
جريئة ، تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافى المروءة والخلق  
الكريم ؛ إلى أندية يباح فيها القمار ، ويسكب على موائدها الذهب ،  
وتبتز فيها الأموال ، وتزازل بسببها البيوت والكرامات ؛ إلى ملاعب  
السباق والمراهانات تنطوى على ألوان من القساد وإضاعة المال ؛ إلى  
مسابقات للجمال إنما هى معارض للفسوق والإثم ، يرتكب فيها ما يندى  
له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها



وأخطرها ؛ إلى شواطئ ، في الصيف يخلع فيها العذار ، ويطفى فيها  
الأشجار ؛ إلى أخبار ذلك تذكر وتنشر ، وتوصف وتصور ، وتستنتار  
بها . كوامن الشهوات والغرائز ، في غير تورع ولا حياء ؛ إلى كثير من  
ألوان المنكرات وفنون الموبقات . . . »

وى ! وى ! أو هذا هكذا أيها العلماء الأجلاء ؟ ! يا سبحان الله !  
ولا حول ولا قوة إلا بالله ! حقاً إنه لأمر جلل يوجب النعمة ويستوجب  
اللعنة . . .

ولكن ! وقد قدر لشفاهكم الشريفة أن تنفرج عن كلام في المجتمع ،  
أفما كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية الفاشية ؛ وعن  
رأى الإسلام في الحكم ، ورأيه في المال ، ورأيه في الفوارق  
الاجتماعية التي لا تطاق ؟

وما الذى كنتم تنتظرونه أيها السادة الأجلاء من أوضاعنا الاجتماعية  
القائمة إلا هذا الفساد ، التي تناولت خطبتكم الشريفة ظواهره ،  
وتجنبتم خوافيه ؟ أوضاعنا الاجتماعية التي تجد منكم السند والنصير ؛  
والتي يصيبكم البكم فلا تشيرون إليها إشارة عارضة من قريب أو من  
بعيد ، لأن السكوت عنها من ذهب : ذهب ابريز !

\*\*\*

إني أتهم . . أتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها تحيل تكافؤ

الفرص خرافة ، والعدالة بين الجهد والجزاء أسطورة . وبذلك تشيع  
القلق والاضطراب في نفوس الأفراد والجماعات .

إنه يكفي في مصر أن يحسن الطفل اختيار أبويه ، كما تتاح له  
الفرص جميعاً ، ويتخطى عقبات الطريق وثباً ! فلئن فاته أن يحسن  
اختيار أبويه ، فلا أقل من أن يختار له زوجة قد أحسنت اختيار  
أبويها ، فولدت في بيت وزير أو كبير ، كي تحمله على جناحيها وتطير !  
فإلا تكن قد أحسنت اختيار أبويها فلا أقل من أن تكون قد أحسنت  
اختيار تقاطيعها وملاحمها . وهذه تمويذة تفك العقد ، ويدخل بها  
على الحكام ويخرج . كما كانت كتب السحر تصف بعض التعاويذ  
في قديم الزمان وسالف العصر والأوان !

والدعابة التي أطلقها الشاعر الملهم «محمود أبو الوفا» في : «أنفاس محترقة» .

أخي . قل لي ولا تنجل بماذا قد ترقيتا ؟

وما أنت بذى جاه وعمرك ما تزوجتا !

لم تكن دعابة عابرة ، إنما هي إيماضة الحقيقة في ضمير هذا الواقع  
الاجتماعي المريض ، انطلقت على لسان شاعر صادق الحس موهوب .

إن تكافؤ الفرص في مثل هذه الأوضاع خرافة لاتقل عن خرافة  
المساواة أمام القانون ! وإلا فأى تكافؤ بين الكتلة من اللحم يدفع بها  
رحم في السكوخ ، فتثقلها الأرض ، أو حجر أقدر من الأرض ،



يساهمها إلى الميكروب والمرض ، ثم يكلها إلى الجوع والشظف ، حتى إذا غلبت ذلك كله ، دفع بها إلى الحرمان والإهمال . وبين أخت لها وليدة على يدي طبيب ، وفي حضن ممرضة ، موكولة إلى العناية والرعاية ، فألى المناغة والتدليل ، فألى روضة الأطفال فالجامعة ، فألى كرسى الديوان أو مساقط الثراء في الشركات والدوائر والتفاتيش ؟ !

أى تكافؤ بين ذلك الذى أحسن اختيار أبويه وخاب في الدراسة ؛ وذلك الذى لم يوهب حسن الاختيار ولو كان من أوائل المتخرجين ؟  
أى تكافؤ في عالم الوظيفة أو في العالم الذى يسمونه « حرّاً »  
وذلك المحظوظ المرموق يخطو والأسرة والجاه يفتحان له مغاليق الحياة .  
وهذا النكد التاعس تتلقاه الصدمات والعقبات في كل شهر من طريقه البطيء الطويل ؟ !

وإذا كان تكافؤ الفرص خرافة ، فالعدالة بين الجهد والجزاء أسطورة ! وإلا فمن ذا الذى يقول : إن هذه الملايين الجائعة إنما تتجوع لأنها ملايين من الكسالى ، الذين لا يريدون العمل والتعب ؟ يقال هذا عن فرد ، أو عن عشرة ، أو عن مئة ، أو عن ألف ، أو عن عشرة آلاف .. أما أن يقال عن الملايين ، فدون هذا ويمج الحديث ، وتسخر العبارة ، وتعجز المرائر عن الاحتمال .

إن الذين يعملون في هذا البلد هم الذين يجوعون . أعنى الذين

يعملون أعمالاً شريفة ، لا تدخل في قائمة السرقة والاختلاس ، والغش والتدليس ، والارتشاء واستغلال النفوذ ، وتجارة الرقيق الأبيض ، والخيانة الوطنية . . . إلى آخر ما يملك به الرجل أو المرأة في مصر أن يصبح بين يوم وليلة من الوجهاء والأثرياء !

نحن لا نفكر التفاوت في الاستعدادات الفردية والمقدرات الذاتية . ولكن أى تفاوت يمكن أن يبرر الفوارق بين ملايين عبود ، وفرغى ، وأمين يحيى ، والبدرأوى . . . وأمثالهم . وبين الملاليح التي ينالها عملهم وعبيدهم وفلاحوهم ؟

وأى تفاوت يمكن أن يبرر الفوارق بين مرتب الوزير ووكيل الوزارة والمدير العام . ومرتبات الكتبة والسعاة والفراشين في الدواوين ، وهى تبلغ خمسين ضعفاً في بعض الأحيان ؟

إن أية مغالطة عن تفاوت المقدرات الفردية لتقف حسيمة خجلى أمام الواقع الصارخ ، الذى يعجز المدافعون عن تبريره وتفسيره ، عجزه هو ذاته عن الاستمرار والبقاء ، بحكم مناقضته لطبائع الأشياء .

إن مجتمعاً هذه سماته ليشيع القلق في نفوس أفرادهِ وجماعته . القلق الناشئ من أن الجهد لا يلقى جزاءه ؛ والجد لا يثاب عليه ؛ والوسائل المتتوية تبلغ بصاحبها ما لا تبلغ الوسائل المستقيمة ؛ والولادة في بيت وزير أو كبير تجدى ما لا يجدى الذكاء والموهبة والخلق والعمل جميعاً !



ولقد مضى على مصر أكثر من ربع قرن منذ تسلمت مقاليدها ؛  
وتوالت على حكمها الوزارات والأحزاب . وما من عهد من هذه العهود  
خلا من الاستثناء البغيض . تارة بالآحاد والعشرات ، وتارة بالآلاف  
والآلوف . حتى شاع في الدواوين وعلى ألسنة الناس أن الواسطة هي  
الطريق الوحيد القصير ؛ ووقر في ضمائرهم أن لا شيء يعدل أن تكون  
ذا جاه ، أو محسوباً ، أو أن تسلك على أية حال طريقاً غير مستقيم !  
ومتى فقدت النفوس الثقة في الخير والواجب ، والأمانة والضمير ؛  
فقد فسد كل شيء ، وسرى القلق والتوجس ، وعم الإهمال والاستهتار .  
وقد اتهمينا إلى هذا . واتهمينا معه إلى ما هو أدهى : اتهمينا إلى الشك  
المطلق في صلاحية الإدارة المصرية ، وإلى الترحم على أيام الاحتلال .  
وهذه كارثة ، فليس أخطر من أن يكفر المواطن بوطنه وبشعبه وب نفسه .  
إن الجريمة التي ارتكبتها سياسة الاستثناء هي هذه الجريمة .  
جريمة تزعزع ثقة المواطنين في الحكم الوطني . جريمة انهيار الشعور  
الداخلي بقيمة الاستقلال ، وبضرورة الاستقلال !

\*\*\*

إني أتهم ... أتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها تدفع بالناس  
دفعاً إلى أحضان الشيوعية ، وبخاصة ذلك الجيل الناشئ من الشبان الأبرياء .  
حين يقال للملايين من السكادحين الذين لا يجدون ما ينفقون :  
إن الشيوعية تضمن لكم كفايتكم ؛ وتمنع الترف الفاجر الذي يزاوله  
أثريائكم . . يكون لها فعل السحر في نفوس الجماهير .

وحين يقال لهم : إن الشيوعية تحرركم حرية العمل ، وحرية القول وحرية التفكير ، فإنهم لا يحسون أنها تسلبهم شيئاً حقيقياً يملكونه . إن الشيوعية لا تحوى سحراً ولا سراً . ولكن الجواهر معها على رأى المثل العامى الذى يقول : « ضربوا الأعور على عينه قال : خسرانة خسرانة ! » . أو المثل الآخر الذى يقول : « قالوا للقرد : ربنا حبسخطك . قال : حبيعملى غزال ؟ ! » . فالعور والقرود — أى الذين لا يملكون شيئاً يخسرونه ، واليائسون من أن تكون هناك حال أسوأ من حالهم — هم الذين تسحرهم الشيوعية . لأن كل تغيير قد يفيدهم . وهو على أية حال لا يضيرهم شيئاً . أما الذين يملكون شيئاً . الذين يملكون حرية القول وحرية الفكر ؛ و يملكون قبلهما حرية الرغبة ؛ ولا تضطربهم تلك الفوارق الاجتماعية السحيقة . . فهم أعداء الشيوعية الطبيعيون . لهذا لم تجد الشيوعية لها إلى اليوم تربة صالحة فى السويد أو النرويج أو الدانمارك ، لا لأن أهل هذه البلاد يملكون أية فكرة عن الحياة أعلى مما يملك الشيوعيون ، ولا لأن لهم أهدافاً روحية أو عقيدة إنسانية . بل لأنهم يملكون أكثر مما تمنحه الشيوعية ، ويفقدون بالشيوعية أشياء حقيقية يملكونها .

حين يقال للعامل فى تلك البلاد : إن الشيوعية ستوفر لك كفايتك وضمانات حياتك . قد يسخر ! فكفاياته كلها مضمونة ، بل رفاهيته كذلك . وحين يقال له : إن الشيوعية ستضمن لك عملاً دائماً ، وتحميك



من نتائج التعطل قد يسخر ! لأنه يجد ضمانات حياته عاملاً ومتعطلاً ؛  
ولا يحس قلقاً في حياته من هذا الجانب أو ذاك .

ولكن حين يقال له : إن الشيوعية ستجندك للعمل بلا حرية  
ولا اختيار ؛ أو ستقضى على حريتك النقايمية ؛ أو ستضغط على حرية  
القول والكتابة والتفكير . . فإن ذلك يفرغه ويزعجه . ذلك أنه  
يملك تلك الحريات فعلاً . يملكها حقيقة واقعة في حياته اليومية ، لافي  
الكتب والرسائل المكتوبة . . عندئذ تعجز الشيوعية أن تغزو قلبه  
لأنها لا تمنحه شيئاً ينقصه ، وعلى العكس تسلبه مزايا حقيقة يملكها .  
كذلك الحال في أمريكا . . إن العامل الأمريكي يعرف أنه حينما  
قرر عمال المناجم الإضراب ، وصرح الرئيس ترومان بأنه يفكر في اتخاذ  
تدبير شديد لإنهاء هذا الإضراب ، هتف العمال : « دع ترومان يأت  
هنا ويحفر الأرض معنا » .

ونشر هذا الهاتف في الصحف على أعمدة بحروف بارزة ، فلم يتحرك  
شرطي واحد ليقبض على عامل ، فضلاً على أن يضربه ويسجنه ويهذهبه  
وحينما كتب صحفي طويل اللسان عن ابنة ترومان كتابة بذيئة ،  
لم يزد رئيس الدولة التي تحكم نصف العالم عن أن يكتب له رسالة شخصية  
« بأنه سيضربه بنفسه عند ما يقابله ! » ولم يتحرك « الجستابو » ليدق  
عنق هذا الصحفي ، أو يقتله سراً ، ويرمى بجسده في جُب !  
والعامل الأمريكي يعلم أن روسياً لا يملك أن يهتف ضد ستالين ،

ولا أن يكتب حرفاً واحداً عن أمرته . . ولهذا يفزع من الشيوعية !  
أما هنا فعبود باشا يملك أن يحطم نقابات عماله التي ترتكب جريمة  
مطالبة بتنفيذ قانون من قوانين الدولة ، يزيد لقيات في نصيب العامل  
باسم إعانة الغلاء . والدولة واقفة تتفرّج وتشجع سعادته وهو يسحق  
هذه النقابات سحقاً . والجمعية الزراعية تشرد موظفاً خدمها سبعة عشر  
عاماً ، وخدمها أبوه قبله لأنه طالب بإعانة الغلاء !  
اللسان أن يتطاول على ذاته الكريمة ! .

أما حرية القول وحرية الفكر ، فيسأل عنها القلم السياسي .  
وتسأل عنها المعتقلات والسجون ، وتسأل عنها حوادث التعذيب في كل  
قضية سياسية في تاريخ مصر الحديث !

إن الشيوعية في ذاتها فكرة صغيرة لا تستحق الاحترام عند من  
يفكرون تفكيراً إنسانياً أعلى من الطعام والشراب ؛ وعند من يعرفون  
أفكاراً أخرى عرفت الإنسانية قبل الشيوعية ، وهي أعدل وأرقى .  
ولكن الأوضاع الاجتماعية القائمة تضفي على الشيوعية سحراً وجاذبية ،  
وإذ كنا نعتقد أن الشيوعية فكرة تصفية وضيقة ، وفيها من سوء  
الظن بالبشرية ، ومن الأحقاد المسمومة ما فيها . . فإننا نعتبر الأوضاع  
القائمة مجرمة ، ترتكب في كل يوم جريمة تحييب الشيوعية للجماهير  
المحرومة ، وتزينها في نفوسهم ، وتدفعهم إليها دفعاً ، للخلاص من ذل  
الإقطاع ولذع الحرمان ، وظلم الأوضاع المناقضة لطبائع الأشياء .



وأخيراً فأنا أنهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها مناقضة في جملتها وتفصيلها لروح الدين كله . الدين منذ أن عرفت البشرية أديانها السماوية ، وهى أكثر مناقضة للإسلام بكل تأويل من تأويلاته . وكل ما يدعيه المحترفون من رجال الدين ليسندوا به هذه الأوضاع ، إنما هو افتراء على الدين ، لا يجده له سنداً من حقائقه ومبادئه : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتّاً قَلِيلاً » .

إن الإسلام ليصرخ في وجه الظلم الاجتماعى ، والاسترقاق الإقطاعى وسوء الجزاء ؛ وإنه ليمد المساكين هذه الأوضاع بقوة ضخمة للكفاح والصراع .

وما من وضع اجتماعى هو أبعد عن روح الإسلام من أوضاعنا القائمة ؛ وما من إثم أكبر من إثم الذين يدنسون بالإسلام ، ثم يقبلون مثل هذه الأوضاع ، أو يبررونها باسم الإسلام ، والإسلام من مثلها براء . إن هذه الأوضاع غير قابلة للبقاء والاستمرار . ذلك أنها مخالفة لروح الحضارة الإنسانية بكل معنى من معانيها . مخالفة لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته . مخالفة لروح العصر الحاضر بكل مقتضى من مقتضياته . . ومن ثم فهى لا تحمل عنصراً واحداً من عناصر البقاء ، يملى لها فى الأجل ، ويمنحها فرصة البقاء .

## في مفارق الطريق

هذه الأوضاع الاجتماعية القائمة غير قابلة للبقاء والاستمرار . .  
هذا ما يحسه لا الذين يعارضونها وحدهم ، بل الذين يحاولون أن يقيموا  
لها الأسناد ! فإنه ينبغي أن نشهد أنهم ليسوا من الغباء بحيث يطمئنون  
إلى أن مثل هذه الأوضاع يمكن أن تمتد بذاتها كثيراً أو قليلاً . لذلك  
هم يحاولون أن يقيموا لها الأسناد الزائفة لتعيش فترة أخرى طويلة  
أوقصيرة . . هم يضيفون بين آن وآخر مواد جديدة إلى قانون العقوبات  
تشمل ما لم تكن تشمل المواد السابقة من الأحوال ، أو تضيف عقوبات  
لم تكن المواد السابقة تتضمنها . رجاء إرهاب المساكين في سبيل  
العدالة الاجتماعية ، بأية طريق ، وبأى عنوان !

وهم يزيدون الأموال المرصودة للدعاية لهذه الأوضاع ؛ فيتحرك  
أقلام وتنشأ صحف ، وتتم في الظلام مؤامرات على التشكيلات النقابية  
وعلى الهيئات المسكخة ، قوامها المال ، وقوامها التهيب والترغيب ،  
وفي يدها سيف المعز وذهبه : هذا لمن شاء ، وذلك لمن أراد !

وهم يتحدثون بين الحين والحين عن . . . العدالة الاجتماعية !  
إي والله عن العدالة الاجتماعية . وعن الطبقات المحرومة ، وعن ضرورة  
تحسين الأحوال . وكثير هم «الباشوات» الذين يطلقون للعدالة الاجتماعية



البخور في هذه الأيام ؛ إذ كان ذلك ألطف مخدر للجواهر الكادحة ،  
يهدئ أعصابها ، ويسيل لهاها ، ويمنيها بالعدل الاجتماعى الذى  
لا تكافح من أجله وحدها . بل يكافح له معها « الباشوات » العظام !  
فما عليها إلا أن تستريح ، وتستبشر ، وتنام !

ولكن شيئاً من ذلك كله ان يجدى فتيلاً ، فالطبيعة والحياة  
والدين والحضارة الإنسانية والاقتصاد والعقل ضدها جميعاً . إنما هي  
تعلات فارغة ، ذاهبة مع الريح في الهواء .

\*\*\*

ونحن اليوم فى مفارق الطريق . كلنا قد انتهينا إلى أن الأوضاع  
القائمة لن تدوم . كلنا متفقون على هذه الحقيقة ، حتى أولئك الذين  
يقيمون من حولها الأسناد . إنما تختلف الآراء حول الوضع الجديد  
الذى ينبغى أن يخلف هذه الأوضاع . والتفكير فى هذا واجب ، فلا بد  
من وضع اجتماعى معين يحل محل هذا الوضع الذى يدق بيده أو بأيدي  
المتشبثين به ، كل يوم مسماراً فى نعشه ؛ والمسار الأخير قريب قريب !  
منا فريق يهتف بالاشتراكية . ومنا فريق يحلم بالشيوعية ، ومنا  
فريق يدعو إلى الإسلام .

والأوضاع القائمة تجاهد الجميع ، لأن واحداً من هذه الحلول كلها  
لن يدعها فى سلام !

هي طبعاً تكافح الشيوعية بادية ذى بدء جهاراً نهاراً بلا تقيّة ولا مداراة . وهي تكافح الإسلام فتداوره تارة ، وتنكل به تارة ، حسبما ترى من القوة التي تسنده إن كانت خطراً حقيقياً واقعاً ، أو كانت خطباً ومواعظ يطفئها الكلام . وهي تدع اسم الاشتراكية يمر ، حين لانحسبها خطراً حقيقياً قائماً ، فأما حين تحسبها قوة حقيقية ، فهي تكافحها كفاح الشيوعية وكفاح الإسلام .

إن تسلم الأوضاع الاجتماعية المستغلة لواحد من الثلاثة إذن ، ولابد من كفاح منظم رتيب ، طويل الأجل . كفاح قلم . وكفاح بحث . وكفاح تنظيم . وكفاح تكتل إلى جانب فكرة من هذه الفكر ؛ لإنقاذ هذا الوطن المشرف على الانهيار .

\*\*\*

هذا في الداخل . فأما في الخارج ، فهناك كتلتان ضخمتان : كتلة الشيوعية في الشرق ، وكتلة الرأسمالية في الغرب . وكلتاها تبث دعاية ماهرة ماكرة في جنبات الأرض ، قوامها : أن ليس في العالم إلا كتلتان ووجهتان : الشيوعية والرأسمالية . وأن ليس للأمم الباقية مفر من أن تكون إلى جانب هذه الكتلة أو تلك ؛ فليس هنالك من سبيل إلا هذا أو ذاك !

إن الشيوعية تخاطب الشعوب المستغلة ، والجاهل الكادحة ؛ فمن



مصلحتها أن تدع هذه الجماهير تفهم أنها إن لا تسكن في صف الشيوعية ،  
فستكون في صف الرأسمالية ! والجماهير حين تختار على هذا النحو ،  
خيرتها واضحة ، وطريقها مرسومة ؛ وقد ذاقنا من الرأسمالية الويل ؛  
فالشيوعية وحدها إذن طريق الخلاص !

والرأسمالية — أو الديمقراطية — تخاطب الهيئات الحاكمة ،  
والطبقات المستغلة ؛ فمن مصلحتها أن تدع هذا الفريق يفهم أنه  
إن لا يكن في صف الرأسمالية ، فسيكون في صف الشيوعية ! والأسياد  
المستغلون حين يخبرون على هذا النحو ، خيرتهم معروفة ، وطريقهم  
مرسومة . وهم يفرقون من الشيوعية فرق الهمجي من الجن والغيلان !  
ولما كانت الكتلة الغربية كالكتلة الشرقية ، إنما تتنازعان  
رقعة العالم ؛ وتديران المعركة لحسابهما الخاص ، على حساب الشعوب  
والأمم التي تدور في فلك هذه أو تلك ، فإن دعايتهما على هذا النحو  
مفهومة ، وهما منطقيتان مع أنفسهما ومع أهدافهما بلا جدال !  
فأما نحن فما شأننا في هذا الصراع ؟

نحن جربنا في فلسطين قريباً أنه لا الكتلة الشرقية ولا الكتلة  
الغربية تقيم وزناً للمبادئ التي تنادى بها ، أو تقيم وزناً لنا نحن أنفسنا ،  
حين يجد الجد ، وتتكشف النيات ، وتنطق المصالح والشهوات .  
فنحن إذن لا راحم لنا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء . ونحن إذن غرباء

مستضعفون في صف هؤلاء أوفى صف هؤلاء . ونحن إذن أذئاب  
في القافلة سلكنا هذا الطريق أو ذاك .

وأنا أفهم جيداً أن نهون عند الآخرين ، فأما أن نهون على أنفسنا  
فذلك أمر فهمه على عسير ، لأنه لا يخالف طبيعة الرجل الكريم  
فحسب ، بل يخالف طبيعة الإنسان !

إنني أعرف أن في هذه البشرية من يستطيعون الذل والمهانة ،  
ويستلذون الأذى في الجسم والكرامة . ذلك أنهم مرضى يعرفهم علم  
النفس ، ويضعهم في قوائم المرضى تحت عنوان خاص

ولكنني لا أعرف أن أمة كاملة يمكن أن تكون مصابة بهذا  
المرض النفسي المعروف ؛ ولا أن جيلاً كاملاً يستلذ الأذى والمهانة بحال  
من الأحوال

تري أحوالنا الأوضاع الاجتماعية القائمة أمة من العبيد ، لا للسادة  
فيها فحسب ، ولكن لأية سيادة تلوح لها من جانب الأفق الغربي  
أو الشرق على بعد ألوف الأميال !

إنني أعيد الأمة الإسلامية أن يكتب عليها كلها هذا الهوان .  
فلقد وقف واحد منها في وسط « السكونجرس » الأمريكى يفهم  
الأمريكان أن الغرور وحده هو الذى يصور لهم ولروس ، أن ليس  
في العالم كله إلا كمتلتان : كتلة الشيوعية وكتلة الديمقراطية . .  
إن هنالك كتلة أخرى ثالثة . . كتلة الإسلام .



ارتفع هذا الصوت في قلب أمريكا ، منبعثاً من فم المرحوم  
« السيد لياقت علي خان » رئيس وزراء الباكستان ، بل من قلبه  
وضميره ، بل من كرامته وكرامة شعبه ، وكرامة الشرق المسلم ، الذي  
يربأ بنفسه عن المهانة ؛ ويرى لنفسه وجوداً وكياناً ؛ ويأبى أن يقف  
في ذيل القافلة وقفة الدليل الخانع الجبان ، تلك الوقفة التي يدعوننا  
إليها مع الأسف شباب من هذا الجيل بلا تخرج ولا إباء .

في هذا العالم رقعة فسيحة متصلة الحدود ، من شواطئ الأطلنطي  
إلى جوانب الباسفيكي ، تضم أكثر من ثلثائة مليون من الناس ،  
يشتركون في عقيدة واحدة ، ونظام معيشي واحد ؛ وتقاليد متقاربة ،  
ولغة إن لا تسكن واحدة فهي في طريقها لأن تصبح لغة التفاهم للجميع .  
ودع عنك عشرات الملايين المنفردة في أوروبا وآسيا وأفريقية ، ممن  
يدينون بهذه العقيدة ، وبذلك النظام الذي تحمله العقيدة .

فأى عقل يمكن أن يغفل هذه الكتلة الضخمة المتصلة الحدود  
من الحساب ؟ إن الكتلتين الشرقية والغربية لا تغفلان هذه الكتلة  
الثالثة من حسابهما إغفالاً حقيقياً ، كما يبدو في دعايتهما الماهرة الماكرة ؛  
إنما هما تتنازعانها تنازع الأشياء والمتاع ؛ ولكل من الكتلتين عذرها ؛  
فما عذرنا نحن أن نرضى بأن نكون كالأشياء والمتاع ؟ !

عذرنا أن الأوضاع الاجتماعية القائمة التي نعانيها في الداخل ،

لا تدع لنا أن نفكر في روية ؛ ولا أن نحس في كرامة ؛ ولا أن ندرك ما وراء الدعايات من أهداف !

هذا صحيح ! ولكن هذا العذر يصلح لفرد أو أفراد . أما الشعوب والأمم فما هي بمعذورة أن تدع نفسها كالشيء التافه أو سقط المتاع ، متى كان لها مخرج يحفظ عليها كرامتها ، ويرد إليها اعتبارها ، ولا يدعها في ذيل القافلة ، وفي مركز التابع الذي لا يؤبه لرأيه ولا يُستشار ! ولولم يكن لها هذا المخرج لأوجبت عليها الكرامة الإنسانية ، والاعتبارات القومية ، أن تبحث عن مخرج ، وأن تخلقه خلقاً ، وتنشئه إنشاء . فكيف وهذا المخرج في يدها ، وفي متناولها ، وفي رصيدها الحاضر الذي لا يعز على التناول ؟

إلا تسكن ذلة العبيد ، فإنه نوع من التفكير عجيب !

\*\*\*

واعتبار آخر . . .

لقد جربنا — حتى شبعنا — تلك القوالب الجاهزة التي استجديناها كالشحاذين من هنا ومن هنا ومن هناك . جربناها في كل جانب من جوانب حياتنا الفكرية والاجتماعية والتشريعية ، حتى اتهمينا بها إلى « كرفال » مضحك من المظاهر والأزياء . أزياء الفكر وأزياء الجسم سواء !



ولنأخذ مثالا ذلك التشريع الذى استوردناه أولا من فرنسا ؛ ثم  
ما نزال نستورده من شتى بقاع الأرض ، كلما احتجنا أن نسرّع لهذه الحياة .  
إن هناك تصادما دائماً بين روح التشريع الذى نستمدّه وروح  
الشعب الذى نسن له هذا التشريع . إن الشعب يسم بالبطولة كل خارج  
على القانون ، ويبذل له التشجيع والعون والمساعدة ، بقدر ما ينفر من  
السلطات القائمة على القانون ، ويضن عليها بثقته ، أو مساعدته على  
جمع الأدلة والقرائن والشهادات .

لماذا ؟ . . يقولون : إن الشعب جاهل ! كلا . فليس هذا هو السبب  
الأصيل ، فالمتعممون كذلك لا يستجيبون لدعوة القانون . إن السبب  
الحقيقى كامن فى التنافر بين روح الشعب وروح التشريع المستعار ؛  
لأن هذا التشريع لم يستمد من ظروفه الاجتماعية ، وملاساته التاريخية ،  
ومشاعره وعقائده ، وتقاليده وعاداته . إنما استمد من وسط أجنبى عن  
روحه جميعاً ، ووسط له تاريخه الخاص ، وله دياناته الخاصة ، وله حاجاته  
الاجتماعية وظروفه الخاصة . والقانون ما لم يكن تلبية لروح الشعوب  
وحاجاتها ، فلن تخلص له ولن تنقاد !

نحن لاندعو إلى عزلة فكرية أو اجتماعية عن ركب الإنسانية  
المندفع . ففحن شركاء فى القافلة ، شركاء فى الحضارة البشرية . بل نحن  
أديننا لهذه الحضارة الكثير ؛ وقننا فيها بدور إيجابى ضخم ، قد لا نفطن

إليه اليوم ولا نحترمه ، إلا إذا تخلصت نفوسنا من مشاعر العبيد !  
ولسكننا نفى هذا التسول الدائم الذى نزاوله ، وهذا الاستجداء  
المزرى الذى نحن عاكفون عليه ، وهذه الاستعارة التى لا نردها ،  
ولا تؤدى ما يقابلها . وما دمنا نستجدى دائماً ولا نعطى شيئاً ، فنحن  
على مائدة الإنسانية فى موضع الشحاذ المتسول ، لا فى موضع الواهب  
السكريم .

وقد يتسول المعدم ويستجدى المسكين . فأما أن يكون لك رصيد  
ضخم ثم تلبس أسمال الشحاذة ، وتمتد يد الاستجداء باسم المشاركة  
فى الحضارة ، فذلك مشاركة لا يعرفها إلا الشحاذون وحدهم ، ولا يطعن  
إليها إلا العبيد !

هنا لك معنيان للحضارة . فأما الأول فهو أن يكون لنا نصيبنا  
التميز البارز فى بناء هذه الحضارة ، وزينا الذاتى المستمد فى أصوله  
مما عندنا ، المنتفع فى تفرعاته وتطبيقاته بكل ما أفادته الإنسانية من  
التجارب . وأما الثانى فهو أن نأخذ القوالب الجاهزة ، والسمات الظاهرة ،  
وأن ننقل نقلاً كل ما نراه بلا روية ولا تفكير ولا تعقيب .

المعنى الأول يفهمه الآدميون ، والمعنى الثانى تفهمه القروء ، وأخشى  
ما أخشاه أن لا نكون قد فهمنا إلا هذا المعنى الأخير !

\*\*\*

وبعد فإن الجبهة الغربية المؤلفة من أمريكا وإنجلترا



وفرنسا - تستعبدنا وتستذلنا ، ولا مكان لنا فيها إلا مكان الذبول والعبيد ، وكل تفكير في الانضمام إليها إنما ينشأ من المصلحة المشتركة بين الرأسمالية المستغلة والاستعمار الذى يحميها ؛ وكل ستار آخر إنما هو ستار خادع ، للتعمية على الجماهير ، التى أصبحت لحسن الحظ لا تنخدع بهذا الستار .

لقد منحنا أرضنا وسماءنا ، وأقواننا وأرزاقنا ، ومصالحنا وأرواحنا ، إلى هذه الجبهة مرتين فى خلال ربع قرن ؛ ثم أينما منها بصفعة كف أوركلة قدم فى نهاية المطاف . فأما فى هذه المرة الثالثة فإننا لن نقبض بذلك المصير السليم الذى قد يحمد العبيد ، ويسجدون للسادة شكراً على السلامة والعافية . بل سنؤوب بالتدمير المطلق الشامل لحياتنا كلها إلى عدة أجيال .

إن الدفاع المشترك فى أية صورة من صوره ؛ أو الانضمام إلى معسكر معين بأى وضع من أوضاعه ، معناه تعريض هذا البلد الأعزل للخراب والدمار . هذا البلد المكشوف الذى ما تزال حياته تتوقف على خزان أسوان ، وقنبلة واحدة تكفى لتحطيم هذا الخزان ! أى لتحطيم مصر كلها أجيالاً بعد أجيال !

إنها جريمة وطنية أن نربط أنفسنا إلى عجلة معينة فى صراع الجبابرة القادم ، فوق أنها جريمة فى حق الكرامة والشرف والضمير . الكرامة التى داسها الديتقراطيات الغربية مرتين ، وما تزال تدوسها

في تبجح ، لا يقيم لهذا الشعب وزناً ، لأنه يرتكن إلى المصلحة المشتركة بينه وبين عهود الإقطاع .

إن هذا العالم العربي الممزق في برائن الاستعمار الغربي ، ليستحق اللعنة والاحتقار ، إذا مد يده الدليلة ليسند الغرب الفاجر في بأسائه مرة أخرى . والشرق لا يمد يده ، وإنما يغطي ظهره للغرب ليضع أقدامه ، ويعبر الهاوية ، ثم يركل الحمار الذليل الذي امتطاه !

إن الغرب الرأسمالي والاشتراكي سواء ، ينافسنا العداء كله كتلة واحدة . وفي فلسطين شاهد من ذلك العداء الناصب قريب . وهو في الوقت ذاته يسومنا الذل والخسف في تبجح ظاهر ؛ ولا يخفض من نبرة الاستعلاء الفاجر إلا في إبان الهزيمة والانكسار .

ونحن لم ننس بعد استهانة جنود الحليفة في الحرب الأخيرة بأرواح المصريين ، الذين كانت عرباتهم تدوسهم باستهانة كما تداس الكلاب ، وتدوس كراماتهم وأعراضهم كما تداس الرقيق والعميد . وما تزال هذه الحوادث تجري في الشقة العريضة التي يحتلونها على ضفة القنال<sup>(١)</sup> . نحن لا ننسى نظرات الازدراء التي كانت تطل من عيون شذاذ الآفاق الذين حشدتهم الحليفة في أرضنا ، وهم يتوجهون بها إلى الجماهير في غدوهم ورواحهم ، بل يتوجهون بها إلى ضباط البوليس وعساكره

---

(١) جاء هذا الكلام في الطبعة الأولى قبل أحداث القنال الأخيرة . أما حوادث اليوم فهي معروضة معروفة لا تحتاج إلى كلام .



في أية مرة حضر هؤلاء للتفرج على حادثة من حوادث المجندين . فما كان للبوليس المصرى إلا أن يتفرج ، والحلفاء يدوسون المصريين بسياراتهم ، أو يركلونهم بأقدامهم ، أو يبتزون منهم النقود في الطرقات .

لقد شعبنا من منظر السكارى العربدين من مجنديهم ، والمائعات المستهترات من مجنداتهم ، ومن تلك القذارات الآدمية التي جلبوها معهم ، أو التي خلفوها لنا ، مثاث وألوفاً من الأعراض المثلومة ، والكرامات المهذرة ، والعار الذي تأنف منه الرجال . . . والنساء !

لقد استكفينا جوعاً لنطعم شذاذ الآفاق من جنود الحلفاء ، وعُربياً لنشتغل مصانعنا لسكسوتهم ، بالتآمر مع رؤوس الأموال ومماليها في عالم الصناعة وفي كراسى الحكم سواء .

لسنا مستعدين مرة أخرى أن نخطف بناتنا من الطرقات والبيوت ليهدر عفافهن في المعسكرات والسيارات ؛ ولا أن نخطف أقواتنا ووطعنا من المزارع والأسواق ، لنصاب نحن بالسل والجوع ، ولا أن نخطف أموالنا وأرصدتنا من البنوك ، لنواجه الأزمات والكساد . ثم يقف بعد ذلك مستعمر متبجح مثل مستر تشرشل ، ليمن علينا بنعمة الحماية ، ويطالبنا ، لا بالتنازل عن دِيننا على بلاده ، بل بدفع تعويض عن تضحيات جنوده . . جنوده السكارى العربدين الأوباش !

فأما فرنسا فصفحتها في تونس والجزائر ومراكش ، وفي مصر ذاتها

أفذر من صفحة الإنجليز . . ففرنسا التي وقفت في مؤتمر ( مونترية )  
حجر عثرة في طريق إلغاء الامتيازات ؛ ولولا أن الإنجليز — لمصلحة  
خاصة — كانوا يريدون قصصمة جناحها في الشرق العربي شيئاً فشيئاً  
لظلت حجر عثرة في طريقنا حتى الآن . فأما فظائعها في تونس والجزائر  
ومراكش ، فهي فضائح البربرية المتوحشة في القرون الوسطى ما تزال .  
وفرنسا أمة انتهت ، وهي في دور الانحلال الأخير ، على الرغم من  
كل دعايتها في الشرق العربي ، ولسكنها ماضية في وحشية البرابرة  
وتعصب الصليبيين ، تقتل وتحرق ، وتعذب وتشوه ، وتسرق وتسلب ،  
وترتكب في المغرب العربي ما ارتكبه المغول والصليبيون من آثام .

ولقد كان عبيد فرنسا هنا في الشرق يردون علينا دائماً حين نحدثهم  
عن « أمهم الحنون » بأنه لا يجوز الحكم على فرنسا بتصرفات  
السياسيين ، فالسياسة لا قلب لها ولا ضمير . فها هي ذى كبيرة صحفيات  
فرنسا « مدام تابوى » تصفع العبيد هنا بتصرفاتها العجيبة . ففي  
زيارتها الأخيرة لمصر تلقت مندوب إحدى صحفنا غاضبة ، لا شيء إلا  
أن رئيس الحكومة المصرية رد على رسالة زعيم من زعماء المغرب ،  
يؤيد فيها حق الحرية . حتى لقد قالت لذلك المندوب : كنت قد  
أعددت مقالا عن بلادكم ولسكنى لن أنشره . فماذا كنتم من تدخلكم  
في شؤوننا بالشمال الإفريقي ؟ !

وبلع العبيد في مصر هذه الصفقة ، وعادوا يسبحون بحمد فرنسا  
أمهم الجنون !

فأما أمريكا : فالذين لم يعيشوا فيها ولم يروها ، قد لا يذكرون لها  
إلا خيانتها لنا في قضيتنا بمجلس الأمن ، وفي حرب فلسطين . ولكن  
الذين عاشوا فيها ، ورأوا كيف ولغت صحافتها ومحطات إذاعتها وشركات  
أفلامها في كراماتنا وفي سمعتنا ، وكيف نشرت ذلك بعداء واضح  
واحتقار مقصود ، أو أحسوا ذلك العداء العنيف لكل ما هو إسلامي  
وشرقي بوجه عام ، أو عرفوا كيف ينظر الأمريكيان للملونين عامة ومدى  
ما يكتنون لهم من احتقار . هؤلاء يعرفون ما هي أمريكا ، ويعرفون  
كيف يجب أن يردوا لها هذا الجليل وذاك !

ولقد لقي الآلاي التركي الذي ذهب إلى كورية جزاءه الحق من  
الأمريكان ؛ وعرف نصيبه ونصيب أى جيش شرقي يذهب لمعاونة  
هؤلاء المتغطرسين على الشرقيين . لقد تركوه يحمي مؤخرة هزيمتهم ؛  
فلما قام بدوره تركوه بلا حماية من الطائرات ، وبلا معونة من السيارات ،  
بل بدون ذخيرة ودون طعام !

وإنه لمثل بسيط لما ينتظر جيوش العبيد في أى حلف مشترك .  
فالأتراك في نظر الأمريكيان هم أرقى الشرقيين لسبب تافه بسيط : أنهم  
بيض البشرة ! ومع ذلك فتلك معاملتهم لهم في الميدان . معاملة السيد  
الخاص الجبان !



تلك قصة الكتلة الغربية معنا — بما فيها من رأسمالية  
واستراكية — فها هي قصة الجبهة الشرقية !

لقد كشفت لنا الشيوعية عن قيمة مبادئها التي تبشر بها يوم  
وقفت تسليح إسرائيل . وإسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تقوم على  
عنصر الدين وحده في الأرض . وعنصر الدين هو أول ماتنكر الشيوعية  
أن تقوم عليه الدول ، وآخر ماتنكر في احتضانه والدفاع عنه . ولكن  
الشيوعية لا تقيم وزناً لإملاصحتها الخاصة ، وتحت أقدامها المبادئ التي  
تزرع بها الدعايات .

والشيوعية قد تمنحنا الخبز ؛ وتعفى نفوسنا من مرارة النظر إلى  
الثراء الفاحش الفاجر الذي تنفر من رؤيته البشعة فطرة الإنسان !  
ولكنها تمنحنا الخبز لتسلمنا مقدساتنا كلها في الحياة ، لا مقدساتنا الدينية ،  
ولكن مقدساتنا الإنسانية جميعاً ، لتحبس نفوسنا في إطار الخبز  
والكساء .

وقد يبدو الحديث عن المقدسات الإنسانية ترفاً في مصر ، أو حديثاً  
عن أوهام وخيالات لا وجود لها في حقيقة الواقع الاجتماعي .  
وهذا صحيح .. فما يمكن أن تعيش هذه المقدسات في أوضاع اجتماعية  
كأوضاعنا القائمة . إن الخطام الآدمي الذي يعد بالملايين في مصر ،  
لا يتسنى له الشعور بتلك المقدسات ، لأنه مشغول بشعور الجوع والحرمان

واسكن ما القول : إذا كان هناك نظام آخر يمنحنا الخبز الذى تمنحه لنا الشيوعية ؛ ويعطينا من بشاعة الثراء الفاحش وفوارق الطبقات ، ويحقق لنا مجتمعاً متوازناً لا حرمان فيه ولا افتراء . . ثم يمنحنا فى الوقت ذاته غذاء الروح ، وحرية الفكر ، والشعور الإنسانى الأرقى بالإنسان ، والحياة ؟

ما القول إذا كان هنالك نظام ، لا يدعنا ذيلاً فى القافلة : قافلة الشيوعية أو قافلة الرأسمالية . . إنما يمنحنا مع العدالة الاجتماعية المطلقة فى الداخل ، كرامة دولية عزيزة فى الخارج ، ويرد إلينا اعتبارنا فى المجتمع الدولى ؛ وقد يعطينا من ويلات الحرب ، ويعنى الإنسانية معنا من هذا البلاء ؟

ما القول إذا كان هنالك نظام يحل لنا مشكلاتنا الداخلية ؛ وفى الوقت ذاته لا يدعنا نقف أبداً من المائدة الإنسانية وقفة المستجدى الذليل ؛ بل وقفة المساهم فى هذه المائدة ، المعطى ما عنده ، وما عنده ليس بالقليل ؟

إننى لأعجب كيف يمكن الإنسان أن ينأى بنفسه عن موقف الكرامة إلى موقف الذلة ؛ وعن دور المعطى إلى دور المستجدى ؛ وعن مركز القيادة إلى موقف التبعية . وهو قادر على الاختيار ، لو قاوم فى ضميره شعور الاضطرار !

إن لدينا ما نعطيهِ ، ولسنا من الإفلاس بحيث يتصور الكثيرون ،  
أو بحيث تصورنا لأنفسنا كتلة الغرب وكتلة الشرق سواء .  
إنما تصورانا هكذا لغاية في نفس يعقوب ! ليحل التخاذل في نفوسنا  
محل الثقة ، واليأس محل التطلمع ؛ ولنسقط فرائس ذليلة مستغفلة في هذا  
الفخ أو ذاك .

إن لدينا ما نعطيهِ ، ولكننا في حاجة لأن نؤمن بأنفسنا ،  
وفي هذا الإيمان حياة ، وفي هذا الإيمان نجاة .



## في الإسلام خلاص

إذا اتضح أن الإسلام يملك أن يحل لنا مشكلاتنا الأساسية ؛  
ويعمقنا عدالة اجتماعية شاملة ؛ ويردنا إلى عدل في الحكم ، وعدل  
في المال ، وعدل في الفرص ، وعدل في الجزاء . . فإنه يكون بلا شك  
أقدر على العمل في بلادنا من كل مذهب آخر ، نحاول استعارته ، عن  
طريق التقليد ، أو على طريقة المشاركة في الحضارة الإنسانية بالاستجداء !  
أجل — إذا اتضح هذا كله — فالإسلام أقدر على العمل في بيئتنا .  
أقدر من الشيوعية بكل تأكيد ( وذلك على فرض تكافؤهما في القيمة  
الإنسانية ، وتكافؤ أثرهما في العدالة الاجتماعية ) فالإسلام معنا هنا  
في الداخل ، ولن نحتاج إلى استجلابه من وراء الحدود ، كما نستجلب  
التقارب الجاهزة ، فتجىء فضفاضة أو خائفة ، لأنها لم تصنع على أعيننا  
ولم تفصل على قدنا ، ولم تنبع من آلامنا وآمالنا .

والإسلام صاحب لنا صديق ، صاحبنا ألفاً وثلاثمائة عام على الخير  
والشر ، وعلى النعماء والبأساء . صاحبنا كارها وراضياً ، وبررنا وأعقناه .  
ولكنه بعد ذلك كله صديق ، له في الجوانح هزة ، وفي المشاعر ذكرى ،  
وفي الضمائر أصداء ؛ وليس بالغريب على أرواحنا ومشاعرنا وعاداتنا  
وتقاليدنا غربة الشيوعية ، التي نحمد منها أشياء ونسكره منها أشياء ،

ونألف منها اتجاهًا ، ونفكر عليها اتجاهًا ، وتوزع مشاعرنا إزاءها على أية حال توزعًا لا يضمن معه توحيد الجبهة في طلب عدالة اجتماعية قوية كما نضمن توحيدها إذا نحن هتفنا إلى العدالة باسم الإسلام .

والإسلام حجة قوية لا تملك لها الرأسمالية المستغلة دفعًا كما تجد للشيوعية . والمخلصون للوطن والمجتمع في الدعوة إلى العدالة الاجتماعية ، الذين يريدون العدالة الاجتماعية لذاتها ويجعلون منها هدفهم الحقيقي ؛ ولا يتخذونها مجرد ستار تهميج الجماهير ، ابتغاء لنشر مذهب معين ، هو الغاية الأولى ، والعدالة وسيلة ! . هؤلاء لا يملكون أن يغفلوا سلاحا قويا كسلاح العقيدة الإسلامية . سلاحا حاضرًا في الأيدي ، مذخورًا في النفوس ، يدعى باسمه فيستجاب ، وتستجاش العزائم باسمه فتذكو وتهميج . . .

إن الذين يريدون تنحية الإسلام عن معركة العدالة الاجتماعية ، ليخوضوها تحت راية الشيوعية ؛ إنما يخونون أنفسهم إن كانوا مخلصين في دعوى العدالة ؛ أو يخونون قضية الجماهير ، جهلاً بقيمة القوة الكبرى التي يزودهم الإسلام بها ؛ أو عداوة مريبة لهذه القوة العظيمة ، أو احتقاراً لا أنفسهم وكفرًا بقيمتهم ، ورضاء كرضاء العبيد بفتات الموائد ووقفه الأذنان . . .

إنني أفهم جيداً أن ينصب المستغلون والطفاة للإسلام ، لينحوه عن هذه المعركة ، إما باستغلال المحترفين لإصدار الفتاوى المكذوبة على

الدين ؛ وإما باضطهاد الدعاة الحقيقيين لعدالة الإسلام ؛ واتهامهم بشق التهم ، للتخلص من ذلك السيف الحاد المصلت على رقاب البغي والاستغلال . فأما أن ينصب للإسلام دعاة العدالة الاجتماعية ، فذلك أمر عندي غير مفهوم . وإن وراءه خبيثاً يجب أن يفطن إليه الأبرياء ، الذين يريدون العدالة لذاتها ؛ ويكافحون للجماهير وحدها ؛ ويتجردون لهذه الغاية النبيلة بلا رياء ولا تقواء .

\*\*\*

ولكن مالنا نعجل قبل أن نعرض مشكلاتنا الأساسية على الإسلام لنرى إن كانت لها عنده حلول ؟  
ما هي مشكلاتنا الاجتماعية التي نعانيها في اجتماعنا الحاضر ، وفي وضعنا الراهن ؟ . . . إنها :

- ١ — سوء توزيع الملكيات والثروات .
  - ٢ — مشكلة العمل والأجور .
  - ٣ — عدم تكافؤ الفرص .
  - ٤ — فساد جهاز العمل وضعف الإنتاج .
- وهناك مشكلات فرعية أخرى ، تعد ثماراً ونتائج لهذه المشكلات الأساسية الكبرى ؛ أو مضاعفات مرضية من مضاعفاتها . فلنتناول هذه المشكلات واحدة واحدة ، نعرضها على الإسلام لننظر كيف يعالجها في ثقة وهدوء وسلام .



## سوء توزيع الملكيات والثروات

لم يعد أحد يجادل في أن توزيع الملكيات الزراعية في المجتمع المصرى توزيع سيئ ، مختل ، يجب العمل على تعديله فوراً . وليس الاختلاف اليوم على صحة هذه الحقيقة ، إنما الاختلاف على الطريقة التى يعالج بها وضع لا يقبل البقاء .

وحين يصل الأمر إلى أن يملك ألف ومئتان وأربعة وتسعون فرداً ، مليونين من الأفدنة الصالحة للزراعة في بلد يصل تعداداه إلى عشرين مليوناً ؛ ولا تزيد المساحة المنزرعة فيه على ستة ملايين من الأفدنة فإنه لا يبقى مجال للاختلاف على سوء التوزيع ، واختلاله ، وفساده .

والأمر في الثروات المنقولة أشد سوءاً ، فإن من لا يزيدون على ألفين يملكون أكثر من ثلث الثروة الممثلة في البنوك والشركات !

تختلف الآراء إذن في طريقة العلاج ، لافى حقيقة الداء . فرجل مثل محمد بك خطاب ، يفكر تفكيراً رأسمالياً واعياً ؛ ويحس أن أوضاع الملكيات الزراعية يجب أن تتغير ، اتقاء لما تنبئه من عواصف مرتقبة في الأفق القريب . . يقدم مشروع تحديد الملكيات الزراعية بحيث لا تزيد على حدمعين ، وبحيث تشتري الدولة ما يزيد ، وتكون به ملكيات صغيرة .

هو تفكير رأسمالى بحت ، لأنه لا يزيد على أن يحول الثروة العقارية المتضخمة إلى ثروة منقولة متضخمة كذلك ، وكل ما يتبعه هو المظهر

الفاحش البارز للإقطاع . ولكن الرأسمالية الغبية في مصر لا تدرك  
مرماه ، فتثور عليه ، وتتهمه بالشيوعية ، وتطارده في البرلمان !

أم لعلنا نحن الأغبياء ، والرأسمالية هي الذكية الواعية !؟ نعم !  
فالإقطاعيون يعلمون أن رقيق الأرض حطام آدمي ، لا خوف منه  
ولا خطر . حطام قد أحاله الجوع والمرض مخلوقات ضعيفة هزيلة  
لا تحس لنفسها وجوداً ولا كرامة ؛ ولا تفكر في عدل ولا نصفة .  
فمن الخير أن تبقى أموالهم مستغلة في الأرض مع هذا الحطام الذي  
لا يؤذى ، من أن يضطروا لاستخدامها في الصناعة ، حيث يقتتل العمال ،  
وينمو بينهم الوعي ، ويطالبون بحقوق الإنسان في يوم من الأيام !

فأما الدولة فقد حاولت في هذه السنوات الأخيرة أن تصنع شيئاً  
— في حدود العقلية الرأسمالية بالطبع وفي حدود رعاية مصالح من تمثلهم  
من الملاك وأصحاب رؤوس الأموال — سنت ضريبة التركات ، وضريبة  
الدخل العام ، وأخذت بمبدأ الضريبة التصاعدية ، وأعفت صغار الملاك  
من الضريبة . . . . وهي خطوات هزيلة لا يبدوها أثر ، لأن الأوضاع  
القائمة قد بلغت من الفحش والسوء مبلغاً لا تعالجه هذه الامسات الناعمة  
بقفازات الحرير اللطيفة !

لذلك تدعو الشيوعية دعوتها : أن لا علاج ولا خلاص إلا من  
ذلك الطريق المرسوم !

فما رأى الإسلام يأتى إلى جانب تلك الآراء؟ وما خطته وطريقته؟  
إن الإسلام يقرّ « مبدأ الملكية الفردية » هذا ما لا شك فيه ،  
ويخالف النظرية الأساسية للشيوعية في هذا الاتجاه .

ولكن أية ملكية فردية هي التي يقرّها الإسلام ، ويكفل لها  
الضمانات ؟

إنها الملكية التي تنشأ من أصل صحيح للملك ، بوسائل صحيحة  
يعترف بها الإسلام .

والإسلام يعدّ العمل هو السبب الوحيد للملكية والكسب . العمل  
بكل أنواعه . عمل الجسم وعمل الفكر سواء . وعلى هذا الأساس يحرم  
الربا ، لأن الزيادة التي ترد مع المال المقترض لم تنتج من عمل ، إنما  
نتجت عن رأس المال . ورأس المال في ذاته ليس سبباً من أسباب الكسب  
الصحيحة ، ولا جزاء عليه ، لأن الجزاء لا يترتب إلا على العمل البشري  
وحده ، ولا جدال في أن هذا هو المبدأ الأساسي للملك وللکسب  
في الإسلام .

كذلك يحدد الإسلام لتنمية المال طرقاً معينة ، ولا يقرّ أى نمو  
يخرج عن حدود الوسائل المشروعة فيه . هذه الوسائل لا يدخل فيها  
الربا — كما تقدم — ولا المقامرة ، ولا الفس ، ولا الاحتكار ، ولا الربح  
الفاحش المخالف لكل سماحة ، ولا المستقطع من أجور العمال التي تبلغ  
نصف الربح ، كما يرى بعض فقهاء الإسلام . وبطبيعة الحال لا يعترف



بالسرقة والنهب والسلب والإكراه ، وسائل للتملك ، أو وسائل  
لتنمية المال .

وكل ملكية لم تقم على الأسس الصحيحة التي يعترف بها الإسلام  
أو قامت عليها ، ولكن نموها لم يتم بالوسائل التي يقرها ، فهي ملكية  
زائفة لا يقرها الإسلام ، ولا يعترف بها ، ولا يوفر لها الضمانات <sup>(١)</sup>

هذا هو المبدأ الأول عن الملكية في الإسلام . ومن طبيعته أن  
يمنع التضخم الفاحش في الثروات منذ البداية . فالمال الذي ينشأ من  
الجهد الذاتي بالعمل ؛ والذي لا يربح ربحاً فاحشاً ؛ والذي تبلغ أجور  
العمال المنشئين له نصف الربح ؛ ولا يتضاعف بالربا ، أو بالغش ؛ ولا يقوم  
على الاحتكار أو الابتزاز . لا يصل بطبيعته إلى حد التضخم الذي  
يؤذى المجتمع ، ويخلق فوارق الطبقات .

وينبغي أن نضيف إلى هذه العوامل الطبيعية عامل الضريبة الدائمة :  
ضريبة الزكاة .. هذه الفريضة التي تأخذ بنظام ثابت ما يعادل ٢.٥٪  
إلى ٥٪ من أصل الثروة كل عام .

وهنا كلمة يجب أن نقال عن هذه الفريضة التي يشوهها المفرضون  
والمتهابلون ، فيصورونها بصورة الإحسان المذل لكرامة الإنسان !

(١) راجع موضوع الملكية الفردية بتوسع في كتاب « العدالة الاجتماعية في  
الإسلام » فصل « سياسة المال » .

إن الدولة هي التي تجمع هذه الضريبة كما تحصل أية ضريبة ؛  
وإن الدولة هي التي تتولى إنفاقها بنظام معين ، قابل للتطور حسب  
حاجات المجتمع وأوضاعه . فإين هي الذلة في نظام كهذا النظام ؟ إن  
المغرضين والمتحايين يحاولون دائماً أن يرسموا صورة واحدة مزورة لعملية  
الزكاة : غنى يتبرع ويتصدق ، وفقير يأخذ ويشكر ! ويد عليها معطية  
تحتها يد سفلى آخذة ، وجهاً لوجه ، مباشرة بين فرد وفرد !

من أين جاءوا بهذه الصورة الشائبة المزورة ؟ لست أدري !

أنذا فرضت الدولة اليوم ضريبة للتعليم ، جعلت حصيلتها خاصة  
بالأغراض التعليمية البحتة ، من بناء للدور ، وأداء للأجور ، وإفناق  
على أدوات الطلاب وكتبهم وغذائهم كذلك . . قيل : إن هذا  
نظام للنسول والشحاذة ، يهين كرامة المعلمين والطلاب ، لأن هذه  
الأموال مأخوذة من أموال الأثرياء ، منفقة في شؤون الفقراء ؟ !

أنذا سنت الدولة قانوناً يحجب ٢٥٪ من كل ثروة كثرت أم قلت  
لتكوين الجيش وتسليحه ، وجعلت هذه الضريبة وفقاً على هذا الباب  
من أبواب النفقات العامة . . قيل : إن الجيش يتسول ، وإن كرامته  
تستذل ، لأن الدولة أخذت نفقاته من أموال الأثرياء . والثرى والفقير  
في أداها سواء !

إن الزكاة ضريبة كهذه الضرائب ، تجيها الدولة ، ثم تنفقها

في وجوه معينة ، تجبها كلاً ثم تنفقها أجزاء .. وليست إحساناً  
فردياً يخرج بعينه من يد ليعطى بعينه إلى يد . وإذا كان بعض الناس  
اليوم يخرجون زكاة أموالهم ، فيوزعونها بأيديهم ، فذلك ليس النظام  
الذي فرضه الإسلام . إنما يصنع هذا البعض ذلك ، ويسلك هذا الطريق  
المباشر ، لأن الدولة لا تجب هذه الضريبة بيدها ، لتنفقها هي بمعرفتها  
في تلك الوجوه القابلة للتصرف بحسب تغير الأحوال .

ولكن الغفلة والاستغفال يبلغان في مصر ، أن يتحدث بعض  
الناس عن الزكاة على أنها إحسان فردى يذل النفوس ، ويعودها  
الاستجداء ! .

والجراة على الحقائق السافرة الأولية إلى درجة التبجح ، لا تنشأ  
إلا من غفلة المستمعين أو القراء إلى حد البلاهة . وكلاهما يتوافر في البيئة  
المصرية والحمد لله ! بل يتوافر في بيئة من يسمونهم « المثقفين » ! الذين  
يستمعون لكل طاعن في نظم الإسلام بترحيب وبشاشة ، لكي يثبتوا  
أنهم مثقفون حقاً ! أسنا في عصر الأقزام وجيل الأقزام ! ؟

\*\*\*

على أية حال لنمض في طريقنا لبيان المبادئ الأساسية في الإسلام  
عن مشكلة سوء توزيع الملكيات والثروات .

أقد رأينا أن الإسلام لا يعترف بملكية لم تقم على أساس صحيح



للملك ، أو لم تتم بوسائل النمو التي يعترف بها كذلك ، ثم رأينا أنه يأخذ بنظام ثابت اثنين ونصفا في المائة من رأس المال ليخصصه لضمانات اجتماعية معينة لبعض الطوائف المحتاجة إلى تلك الضمانات ؛ ليؤديها لهم دفعة واحدة يجعلون منها رأس مال لعمل ، أو دفعات على هيئة مرتبات شهرية في حالة العجز عن العمل ، أو بأية صورة من الصور التي يقتضيها النظام العام .

ولكن هذا ليس كل حقوق الإسلام في المال .

إن هذا إنما يجري حين يكون المجتمع متوازنا لا اضطراب فيه ولا اختلال ؛ وعند ما لا تكون هناك حاجات استثنائية للمجتمع ، لمواجهة الطوارئ الداخلية أو الخارجية . فأما حين تتغير الأحوال وتبرز الحاجات ، فحق المجتمع مطلق في المال ، وحق الملكية الفردية لا يقف في وجه هذا الحق العام .

والإسلام يعطى هذه السلطات للدولة — ممثلة المجتمع — لمواجهة الحاجات العاجلة فحسب ، بل لدفع الأضرار المتوقعة .

وحماية المجتمع من الاعتداء الخارجي ، حمايته من التخلخل الداخلي سواء في منح هذا الحق للدولة ، ليتصرف في الملكيات الفردية بلا حدود ولا قيود ، إلا حدود الحاجات الاجتماعية والصالح العام .

في يد الدولة أن تفرض أولا ضرائب خاصة — غير الضرائب

العامة — كما تشاء . فتخصص ضريبة للجيش ، وضريبة للتعليم ، وضريبة للمستشفيات ، وضريبة للضمان الاجتماعى . . . وضريبة لكل وجه طارىء من أوجه الإنفاق ، لم يحسب حسابه فى المصروفات العامة ، أو تعجز الميزانية العادية عن الإنفاق عليه عند الاقتضاء .

وفى يد الدولة أن تنزع من الممتلكات ، وأن تأخذ من الثروات — بنسب معينة — كل ما تجده ضرورياً لتعديل أوضاع المجتمع ، أو لمواجهة نفقات إضافية ضرورية لحماية المجتمع من الآفات : آفات الجهل ، وآفات المرض ، وآفات الحرمان ، وآفات الترف ، وآفات الأحقاد بين الأفراد والجماعات ، وسائر ما تتعرض له المجتمعات من آفات .

بل فى يد الدولة أن تنزع الممتلكات والثروات جميعاً ، وتعيد توزيعها على أساس جديد — ولو كانت هذه الممتلكات قد قامت على الأسس التى يعترف بها الإسلام ، وعت بالوسائل التى يبررها — لأن دفع الضرر عن المجتمع كله ، أو اتقاء الأضرار المتوقعة لهذا المجتمع أولى بالرعاية من حقوق الأفراد ، فنظرية الإسلام فى التكافل الاجتماعى لا تجعل هنالك تعارضاً بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع . وكل ضرر يصيب المجتمع يعده الإسلام ضرراً يقع على كل أفرادِهِ ، ويحتم على الدولة أن تقي هؤلاء الأفراد من أنفسهم عند الاقتضاء !

ويبدو جلياً مما تقدم أن التصرفات التي لا تبلغ هذا المدى مستطاعة بطبيعة الحال . فللدولة أن تبقى على الملاك أراضيهم ، ثم تعطيهم قدرأ منها بزرعونه في حدود طاقتهم ، وتمنح حق الارتفاق على سائرهما لمن تشاء من الأفراد المحتاجين القادرين ، يستغلونه لحسابهم بلا أجر ولا كراء .

أو أن تتدخل في إيجارات الأرض ، فتحدد لها سعراً معيناً لا تتعداه ، أو نسبة من المحصول لا تجوز على المستأجر ، أو أن تتصرف في هذه الحدود حسبما تقتضيه الظروف ، بلا قيد إلا ضمان العدل واجتناب الجور . وهيئة قضائية كمجلس الدولة ، يمكن أن يوكل إليها هذا الضمان . وهكذا نجد أن مشكلة « الملكية الفردية » لا تقوم إلا في أذهان الذين لا يعرفون الاسلام ، أو الذين يعرفونه ثم يكتمون ما أنزل الله ، ويهتفون بضمانه الملكية الفردية على حد : « ولا تقربوا الصلاة ... » ! إن الملكية الفردية محترمة في الإسلام بقيودها تلك واحتمالاتها هذه ، لأن هذا النظام يلبي ميول الأفراد الطبيعية في التملك ، ويحتمهم على بذل أقصى الجهد في الإنتاج ، ثم يدع خيرات ذلك كله للمجتمع ، وفي خدمة المجتمع عند الاقتضاء .

وهو نظام أعدل من نظام الشيوعية وأمر وأشم .  
أعدل ، لأنه لا يمس الملكية الفردية إلا عند الاقتضاء .



وأمر ، لأنه يضمن بذل أقصى الطاقة من الأفراد في الإنتاج .  
وأشمل ، لأنه يعد الفرد للمجتمع ، ويعد المجتمع للأفراد .

### مشكلة العمل والأجور

إذا كان العمل هو وسيلة التملك ووسيلة تنمية الثروة في اعتبار الإسلام ؛ فهو إذن قيمة أساسية من القيم الاجتماعية والاقتصادية .  
والإسلام يحيط العمل بقداسة ، ويمنح اليد العاملة توقيراً ، حتى ليقول نبي الإسلام الكريم عن يد ورمت في العمل : « هذه يد يحبها الله ورسوله » وتتوارد أحاديثه تترى عن هذه القداسة : « من أمسى كلاً من عمل يده أمسى مغفوراً له » ، « إن الله يحب العبد المحترف » . . . « ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من عمل يده » .

ولقد مر أن بعض فقهاء الإسلام يجعل للعامل الحق في الحصول على نصف الربح ؛ والمبدأ العام الذي يجعل للحاكم أن يستجد من الأحكام بقدر ما يجد من الأفضية ، يجعل للدولة من حقوق التشريع المالية ما تراه دائماً وفق مطالب المجتمع المتجدد ، ومبدأ المصالح المرسلة ( أى مصالح المجتمع التي لم يرد فيها نص ) ومبدأ سد الذرائع ( أى توقي الأخطار المحتملة ) كفيلاً بمنح الدولة كل الحرية في التشريع ، حسب مقتضيات الأحوال في حدود العدل وكفاية العامل ورضاه .

وفي هذا المضطرب الواسع ، والحرية العريضة ، فسحة لتلافى كل ظرف طارئ ومواجهة كل حالة استثنائية ؛ على ضوء المصلحة الاجتماعية العامة ، وعلى ضوء المبادئ الإسلامية الأخرى ، التي تحرم الغبن ، كما تحرم كل إجراء يؤدي إلى الترف في جانب والحرمان في جانب ؛ أو يؤدي إلى احتباس المال في أيدي قليلة ، وتداوله في محيط ضيق . ومن أول مبادئ الإسلام ألا يكون المال في أيدي الأغنياء وحدهم : « كئى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » فكل نظام للأجور يؤدي إلى هذه النتيجة هو نظام محرم لا يقره الإسلام . وعلى ضوء هذا المبدأ وتلك المبادئ العامة السابقة يمكن التشريع للأجور في اطمئنان . أما ساعات العمل فهي محدودة بالمبدأ الإسلامي العام الذي يحرم الضرر : « لا ضرر ولا ضرار » فكل ما يؤدي إلى إرهاق صحة العامل ، أو حرمانه حق الراحة الضرورية ، أو حق الاطمئنان النفسى على حاضره وعلى مستقبله ، هو نظام محرم لا يقره الإسلام في العمل ولا يرضاه وعلى الدولة أن تشرع في هذه الحدود حسب المقتضيات .

ونظام العمل نظام متجدد ، ومقتضياته وظروفه أبدا في تغير . لهذا وضع الإسلام المبادئ العامة للتشريع له ، ولم يحدد قوانين ثابتة ، فتلك خطته العامة لمواجهة حاجات الحياة المتجددة ؛ ويتقبل تجارب البشرية الواقعة في كل زمان ، ويبقى حارسا للاتجاه العام ، كي لا يحميد عن وجهته ، ولا يخالف عن روحه ومبادئه .

ولقد كانت هنالك بقية من الحديث عن «الملكية الفردية» آثرت نقلها إلى هنا ، لأنها حديث « عن الاحتكار » وللاحتكار صلة بالملكية العامة ، وصلة بالعمل والأجور . ذلك أن نظام الاحتكار كثيراً ما يؤدي إلى تحكم صاحب العمل في العمال — فوق تحكمه في السوق والاستهلاك — لأن العمال الذين يعملون في صناعة أو حرفة محتكرة لفرد أو شركة ، يعانون نظاماً أشبه شيء بنظام الإقطاع . كل ما هنالك أن الإقطاع احتكار للأرض ، والاحتكار احتكار للصنف .

والإسلام يحرم نظام الاحتكار ، كما يحرم ما يدعونه حقوق الامتياز بالنسبة إلى الموارد العامة والخدمات العامة . وما يسمى اليوم « تأميم المرافق العامة » هو مبدأ رئيسي من مبادئ الإسلام .

فكل هذه الاحتكارات القائمة : كاحتكار صناعة السكر ، واحتكار صناعة المواد الكحولية ، واحتكار صناعة السمنت . وكل الامتيازات المعروفة : كامتياز شركة القنال ، وامتياز شركة الترام ، وامتياز شركات النور والمياه . . وما إليها ؛ كلها نظم لا يقرها الإسلام . أولاً : لأنها وسيلة من وسائل التحكم في السعر والتحكم في العامل . وثانياً : لأنها وسيلة لتضخيم الثروة بطريقة جائرة لا تحقق تكافؤ الفرص للجميع . وثالثاً : لأنها وسيلة من وسائل تعطيل الإنتاج ورفض التحسينات في كثير من الأحيان .



إن المرافق العامة يجب أن تبقى ملكاً للشعب ؛ وحصيلة استفادها  
يجب أن تعود لخزانة الشعب لا لخزائن الأفراد . . هذا هو الإسلام !

### عدم تكافؤ الفرص

لا يكره الإسلام شيئاً كما يكره اختلال المساواة في أية صورة من  
الصور ، وفي أى وضع من الأوضاع ، ولا ينفى شيئاً من محيطه ، كما  
ينفى التفاوت بسبب المولد أو الجنس أو اللون أو الثراء . . إنه يقر مبدأ  
التفاوت في الطاقة والمقدرة ؛ ولكن الجميع يجب أن تتاح لهم فرص  
متكافئة ، فإذا سبق أحد بموهبته وحدها ، لا بأى اعتبار آخر ، فذلك  
هو السابق الوحيد الذى يقره الإسلام .

ليس أحد بمولده خيراً من أحد ؛ والولادة في أى بيت علا أو هبط ،  
لا تمنح الفرد مزية زائدة ، ولا تسلبه مزية قائمة . وما عادى الإسلام  
شيئاً كما عادى فكرة الطبقات .

ويخلط بعض الناس في فهم الإسلام ، فيفهمون آية : « ورفعنا  
بعضهم فوق بعض درجات » بأنها إقرار لنظام الطبقات في الإسلام .  
وفي مجتمع مريض كمجتمعنا وحده يمكن أن يفهم هذا المعنى ! . . إن  
الارتفاع هنا فردى لا طبقى ، فردى قائم على الموهبة الشخصية ، لا طبقى  
قائم على المولد في طبقة . فالموهبة الفردية تهبط لصاحبها مكانة باستحقاق  
أما الولادة في بيت فلا ترتب لصاحبها مقاماً واحداً لا يستحقه باستعداده

وعمله في الحياة . وهذا هو الفارق الأصيل بين النظام الطبقي ونظام الإسلام . وهو فارق حاسم لا مجال لتجاهله أو الشك فيه . وهو يهدم النظام الطبقي من أساسه ، ويقرر التفاوت بين الأفراد بتفاوت المواهب والاستعدادات .

من حق كل وليد في الأمة أن يولد صحيحاً خالياً من الأمراض الوراثية كالآخرين . فضمانات الحياة التي تنهياً لأى أبوين في المجتمع ، يجب أن تنهياً لكل أبوين آخرين . لا لحسابهما وحدهما ، ولكن لحساب الوليد الذي سينسلانه ، لأن فرصة الصحة يجب أن توفر له قبل أن يمضى . وإلا فليس هنالك تكافؤ حقيقى في الفرص بين وليد مصاب بالصرع الوراثى ووليد سليم . وتكافؤ الفرص لا يبدأ بعد الميلاد ؛ فالميلاد موعد متأخر جداً لتحقيق هذا التكافؤ . وعلى الدولة أن تضمن لكل وليد هذه الفرصة ، بمنحه أبوين صحيحين على قدر المستطاع !

ومن حق كل وليد أن يجد من الكفاية الغذائية ، والرعاية التربوية ، ما يجده كل وليد آخر في الدولة . فإذا حدث أن كان دخل أبويه أو ظروفهما المعيشية لا تمكنهما من توفير هذه الفرصة له ، فإن على الدولة أن توفر لهما هذه الظروف . لا لحسابهما وحدهما كعضوين في هذا المجتمع ، بل لحساب هذا الوليد ، الذي يصبح تكافؤ الفرص بالقياس إليه خرافة ، إذا نشأ ناقص التغذية أو مهملاً في البيئة ، بينما

هنالك ولدان آخرون محظوظون تتاح لهم هذه الفرصة دونه في الحياة .  
ومن حق كل طفل بعد ذلك أن يجد العلم وأن يجد الصحة ،  
وأن يجد الفرصة للعمل ، بحسب طاقته وموهبته . وهنا يكون للتفاوت  
الطبيعى حقه ، لأنه ينشأ عن التفاوت فى داخل الشخصيات ، لا فى ظاهر  
المجتمع والملابسات .

وفى تاريخ الإسلام من النماذج ما لا حصر له على سمو المواهب  
الفردية بأصحابها إلى أعلى المستويات الاجتماعية ، لا يضيرهم مولد فى بيت  
فقير ، ولا فى بيئة متواضعة ، ولا فى حرفة صغيرة ذلك أنه :  
« لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » .

والإسلام لا يقر تلك الامتيازات الكاذبة التى تمنح للأطفال  
بمجرد مولدهم ، لمجرد ولادتهم فى بيت أو أسرة ؛ أو تمنح للأبناء لمجرد  
خواطر الآباء ! .. هذا الذى يتاح له الالتحاق بالكلية الحربية قبل  
زميله لمجرد أنه من أسرة أرستقراطية أو عسكرية ! وذلك الذى يتاح  
له العمل فى وظائف النيابة أو السلك السياسى لمجرد أنه من أسرة  
أرستقراطية أو قضائية ! وذلك الذى يرسل فى بعثة علمية إلى الخارج  
لأنه الأول أو الأليق ، ولأنه من بيت أرستقراطى ! .. كل  
أولئك أمور لا يعرفها الإسلام ، لأنها تصدم مبدأ أساسياً من مبادئه  
التي جاء ليقررها فى الحياة .

وعندما ننظر إلى الأوضاع الاجتماعية القائمة من هذه الزاوية



الإسلامية ، نطلع على شناعات بشعة ، ونبصر بمخالفات صريحة ، بل نجد الأساس الاجتماعي كله مقلوباً . . . إن الإسلام ليصرخ في وجه الاستثناءات والمحسوبيات ، التي أصبحت قوام الدولة وقوام المجتمع . ولو كان الأمر للإسلام ما ترك هذا البناء كله يقوم على الظلم والتفريق والفساد كما قام !

### فساد العمل وضعف الإنتاج

أحب أن ألفت النظر بشدة إلى أن هنالك خطراً حقيقياً مصلتنا على رقابنا ، وعلى وجودنا ذاته كامة : خطر الفساد الشامل لكل جهاز العمل في الدولة وفي المجتمع ؛ ذلك الفساد الذي يؤدي إلى ضعف الإنتاج العام ، بل إلى الشلل في بعض الأحيان .

ولقد تحدثت عن هذا الشلل في مقدمات الكتاب ؛ ولكني أحب ألا أكتفي بما قلت هناك : إننا على حافة الهاوية والخراب بسبب تناقص الغلة وضعف الإنتاج ؛ وإن الفقر والبؤس والهوان لا تحيق بنا لجرد سوء التوزيع وحده ، بل لأن مجموع الثروة القومية في ذاته ضئيل ، ولأن الإنتاج العام دون ما ينبغي أن يكون عليه بكثير .

هذا الشلل وذلك الفساد كلاهما وليد أمراض اجتماعية شتى : وليد سوء توزيع الممتلكات والثروات ؛ وليد فساد نظام العمل والأجور ، وعدم تكافؤ الجهد والجزاء ؛ وليد انعدام تكافؤ الفرص والقضاء بذلك

على القوى والكفايات التي لم توهب نعمة الولادة في بيت مرموق ،  
أو الاحتماء ببيت من بيوت الثراء . . . ثم من بعد ذلك كله وليد  
الانحلال الخلقى ، الذى ينشأ من تلك العوامل جميعا ؛ وينشأ من خواء  
الضمير من عقيدة دافعة ، توقف شعور الفرد بالواجب ، وتدفع المجتمع  
كله إلى الخلق والتقدم والاستغلاء .

ولقد أسلفنا رأى الإسلام فى المشكلات الثلاث الكبيرة ، التى  
تنشأ بدورها — أو تشارك فى إنشاء — هذه المشكلة الضخمة الرابعة .  
فالآن ننظر كيف يعالج الإسلام هذه المشكلة أيضا .

إنه يعالجها بإزالة مسبباتها المادية الأولى ، ثم يعالجها بامتلاء النفس  
بالعقيدة الدافعة ؛ العقيدة التى تملأ فراغ النفس وخواءها ؛ وترفعها  
إلى الله ؛ وتجعل للفرد هدفاً أكبر من ذاته ، هو ذلك المجتمع الذى يعيش  
فيه ، وتلك الإنسانية التى هو منها .

ولقد يظن المصابون بضحالة الروح ، وقزامة الذات ، وخواء الضمير  
أن هذا الذى نقوله هنا كلام وعظى لا رصيد له فى واقع الحياة !  
ونحن لا نكتب لهؤلاء .. فهؤلاء ميثوس منهم فى كل زمان ؛  
وضمير الإنسانية لم ينضب على الرغم من إيجاعاتهم له فى كل مكان .  
إن الفرد بلا عقيدة كلية تربطه بالأرض والسماء ، قزم ضائع ،  
ولقى مهمل ، والعقيدة ضرورية له حتى فى عالم الشيوعية الذى يسخر

بالعوامل الروحية في الحياة ! فلولا حرارة العقيدة ماتلقى الألوف منا في  
سيبريا وسجون القيصرية بمثل ذلك الحماس الذي ممكن للحكم الشيوعي  
في نهاية المطاف !

ولقد انتهت بنا الأوضاع الاجتماعية المريضة إلى فساد في الذم  
والضائر ، واستهتار بالعمل والواجب ، لا يقتصر أثرهما على مجال دون  
مجال . وجريمة الاستثناءات في دواوين الحكومة انتهت بالمحظوظين  
والمستعدين سواء إلى الاستهتار بالعمل ، لأنه لا يؤدي إلى ثمرة ، ولا يترتب  
عليه ثواب ولا عقاب . وجريمة الحرمان من عدالة الأجر والضمانات  
الاجتماعية في دائرة العمل انتهت بالعمال إلى الاستهتار ، لأن القوضى  
أيسر من النظام ، في محيط لا عدالة فيه ولا وزن للجهد ولا جزاء .  
وجريمة انعدام تكافؤ الفرص أهدرت وبددت ثروات بشرية هائلة  
وحولتها إلى فتات وحطام . وجريمة تكتيل الثروة كلها في أيدي قليلة  
واحتكارها في حيازة عدد محدود انتهت إلى تعطل الملايين ، وتمضية  
أوقات فراغهم على المقاهي في المدن ، وبجوار الأجران في القرى ، وبذلك  
أصبحت هذه الملايين المتعطلة مستهلكة لا منتجة ، لأنها لا تجد ما تعمل ،  
والدولة لا تجد المال لمشروعات الإيشائية ، لأنها لا تحصل إلا على  
ميزانية هزيلة من ضرائب هزيلة ، إشفاقا على رؤوس الأموال أن تضار  
ثم أضيف إلى هذا البلاء كله خواء روح الشعب من العقيدة



الدافعة على العمل ، وحساسية الضمير التي تشيعها العقيدة . فتمت تلك الحلقة المفرغة الأثيمة التي لا يحطمها إلا الإسلام .

إن الإسلام ليحارب روح البطالة بكل روحه ، ويكافح أسبابها بالوسائل التي أسلفنا . فيعالجها في عالم الضمير والشعور ، وفي دنيا العمل والواقع . فالبطالة هي أعدى أعدائه على أي لون وفي أي وضع ، وفي جميع الصور والأشكال .

الإسلام عدو التبطل الناشئ عن تكسب الثراء ؛ فلا جزاء إلا على الجهد ، ولا أجر إلا على العمل . فأما القاعدون الذين لا يعملون ، فتراؤهم حرام ، وأموالهم حرام ، وعلى الدولة أن تنتفع بذلك الثراء لحساب المجتمع ؛ وألا تدعه لذلك المتبطل الكسلان .

والإسلام عدو التبطل الناشئ عن الكسل ، وحب الدعة ، والاسترزاق من أيسر السبل كالاستجداء . وهو ينذر الذين يتسولون وهم قادرون : أن يأتوا يوم القيامة وليس في وجوههم مزرعة لحم !

والإسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ! فالعبادة ليست وظيفة حياة ؛ وليس لها إلا وقتها المعلوم « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » وتمضية الوقت في الترائيل والدعوات بلا عمل منتج ينمي الحياة ، أمر لا يعرفه الإسلام ؛ ولا يقر عليه تلك الألوف المؤلفة في مصر التي لا عمل لها إلا إقامة الصلوات في المساجد أو تلاوة الأدعية والأذكار في الموالد !

ولو كان الأمر للإسلام لجند الجميع للعمل ، فإن لم يجدوا فالدولة حاضرة ؛ وحق العمل كحق الطعام ؛ فالعمل زكاة للأرواح والأجسام ، وعبادة من عبادات الإسلام ، التي يجب أن تقيمها الدولة وتهيئ لها السبل ؛ والبطالة مفسدة ، وعلى الدولة أن تقي المجتمع عواقبها ، وتأخذ الطريق على أسبابها ؛ فمن أتاها بعد ذلك طوعا ، فعلى الدولة أن تصده عنها ، وأن تجنده للعمل ما استطاع .

### مشكلات أخرى يحلها الإسلام

وبعد . فإن الإسلام لا يحل لنا المشكلات الاجتماعية وحدها ، ولا يقف بنا داخل حدودنا الداخلية في عزلة وانزواء .

إنه يمنحنا الذاتية الشخصية التي نبرز بها في المجتمعات الدولية . فالإسلام عقيدة استعلاء واعتداد ، وهو يأبى علينا أن نكون ذيلا وإمعة ، أو أن نسلم زمامنا إلى كتلة شرقية أو غربية ، أو أن نقف تحت لواء غير لواء الإسلام . اللواء الذي يمكن أن تجتمع إليه كتلة ضخمة يتجاوز تعدادها ثلثمائة مليون ؛ والتي تتحكم بمراكزها الاستراتيجية ، وبمواردها الطبيعية ، في كتلتى الغرب والشرق سواء . لو كان لها علم واحد تؤوب إليه ، وتصطف تحته في استعلاء الإسلام وعزة الإسلام .

إنه ليس من الضروري الآن أن تكون هنالك حكومة واحدة في تلك الرقعة الفسيحة ؛ إنما المهم أن تشكلت تحت لواء واحد ؛ فالإسلام هو

الإسلام ، وقوانينه هي قوانينه ، وشخصيته من القوة والوضوح بحيث لا تندغم ولا تنبهم في نظام آخر ، وروحه من القوة بحيث لا تخضع للتلاشي والفناء .

إنما نحن مستعمرات ومناطق نفوذ ، لأننا تخلينا عن هذا الروح ، فتخلي عنا ، وخجلنا من الوقوف تحت لوائه فأنف منا ؛ وهنا في غمار الآخرين ، ففقدنا شارة العزة والاستعلاء والاحترام .

فلنعزم أن نسلك الطريق الوحيد الذي يرد إلينا اعتبارنا بين كمتلي الشرق والغرب ، ويمنحنا احترامنا في نظر الجميع . وقد يرد للعالم طمأنينته وأمنه ، حين تنهض الكتلة المسامة ، وتمسك بيدها ميزان التوازن والسلام ؛ وتضع حدا لهذا الجنون الذي تراوله الكتلتان بإثارة حرب ثالثة ، لأنها تقف وجهها لوجه ، تتنازع وتتصارع علينا . نحن الممتلكات والمستعمرات والأشياء !

حينئذ لا ينعق الناعقون في أرض الإسلام من هنا ومن هناك : انضموا إلى هذا المعسكر أو ذاك ! كأنه لا سبيل لنا إلا هذا أو ذاك ؛ وكأنه لا مفر من أن نكون أبداً في ذيل القافلة ، ولا يكون لنا يوماً كيان مستقل ، ووجود محترم ؛ وكأننا لا نملك أن نبرز إلى الوجود كتلة ثالثة تمسك بيدها ميزان التوازن ، وتمثل فلسفة اجتماعية خاصة ، قائمة على فكرة الإسلام السلفية التي تتضمن محاسن الاشتراكية



والشيوعية جميعاً ، وتبرأ من عيوبهما جميعاً ؛ وتزيد على هذه وتلك  
أفاقاً أعلى ، وعدالة أشمل ، ومثلاً كريماً للحياة لم تعرف مثله الحياة .  
... ونحن نملك أن نقدم للبشرية هذه الفكرة التي تهدف إلى  
تعاون إنسانى كامل ، وإلى تكافل اجتماعى صحيح ، وترمى إلى رفع  
قيمة الحياة إلى المستوى اللائق بعالم يصدر عن الله ، ومكاننا إذن ليس  
في ذيل القافلة ، ولـكن في مأخذ الزمام <sup>(١)</sup> . . .

---

(١) فكرة الإسلام الكاملة عن الحياة عاجلت منها طرفاً في كتاب « العدالة الاجتماعية » في فصل « طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام » وموعدي بمعالجتها علاجاً شاملاً كتاب مستقل عن : « فكرة الإسلام عن السكون والحماة والإنسان » بمشيئة الله .

## لابد للإسلام أن يحكم

إذا أريد للإسلام أن يعمل ، فلا بد للإسلام أن يحكم ؛ فإما جاء هذا الدين لينزوي في الصوامع والمعابد ، أو يستكن في القلوب والضمائر ؛ إنما جاء ليحكم الحياة ويعرفها ؛ ويصوغ المجتمع وفق فكرته الكاملة عن الحياة ، لا بالوعظ والإرشاد ، بل كذلك بالتشريع والتنظيم . جاء ليترجم مبادئه ونظرياته ، نظاما وحياة ، ويجعل أوامره ونواهيه مجتمعا حيا وناسا من اللحم والدم ، يدبون على هذه الأرض ، ويمثلون بسلوكهم ونظام حياتهم ، وعلاقات مجتمعاتهم ، وشكل حكمهم . . . مبادئ هذا الدين وأفكاره ، وقوانينه وتشريعاته .

ومما سبق عرضه من مشكلات اجتماعية وقومية ، وطريقة علاج الإسلام لها ، يتبين بما لا لبس فيه ضرورة الحكم للإسلام . وإلا فكيف يواجه هذه المشكلات وسواها ، وكيف يعالجها ويحلها الحلول ؟ إنه لا يملك توزيع الثروة طبقا لحاجات المجتمع ، أو تحقيق العدالة بين الجهد والجزاء ، أو منح الجميع فرصا متكافئة في الحياة ، أو تجنيد القوى المعطلة للعمل والإنتاج ، أو دفع الدولة إلى اتخاذ موقف معين في المجتمع الدولي ، أو تجنيد الجيوش وإعداد القوى . . . أو . . . مما يمثل مبادئه الأساسية التي يقوم عليها كيانه ذاته في فكرته الكلية

التي جاء ليصوغ منها الحياة . . إنه لا يملك شيئاً من هذا كله وهو عقيدة مستسرة في الضمير ، أو صلاة خاشعة في المسجد ، أو مناجاة بين العبد ومولاه .

والذين يتحدثون عن الإسلام وانتفاء حاجته إلى الحكم ؛ أو عن إمكان تحقيقه في الحياة دون تحكيمه في الحياة . . إنما يلقون حديثاً فيه من التفاهة والقزامة ما لا يرتفع إلى شرف المناقشة واحترام الجدل ! إنهم لا يدلون بهذا على جهلهم لطبيعة هذا الدين من أساسها ، ولا بعدهم عن الإلمام بحقائقه البسيطة التي يلام على جهلها المبتدئون ؛ بل يدلون على جهل بكل مقومات الطبيعة البشرية ، وكل العوامل المؤثرة في تكوين المجتمعات ، وكل الثقافات الضرورية لاستقبال الحياة ، بله الحكم على الحياة !

ولكن القزامة والتفاهة الفاشية عند الكثيرين في هذا الجيل ، وسطحية التفكير وضحالة الثقافة ، تقبل مثل هذا الكلام أحياناً ، حتى ليردده وزراء في الحكم ، لا ينجلون أن يطلع الناس في مصر وفي غير مصر على مدى ما يتمتعون به من سذاجة وغفلة ، ومن سطحية وبعد عن الثقافة — وهم الذين يدعون أنفسهم أو يدعواهم الناس « مثقفين » !

في العالم المسيحي الغربي يدخل الفرد إلى الكنيسة فيستمع إلى المواعظ والتراتيل ؛ وقد يخشع قلبه ، وهو ينصت إلى صوت الواعظ المؤثر ، وإلى



الموسيقى المنبعثة من الجوقة ، والتراتيل الخاشعة ، والأبجزة الأريحية  
المطربة . . .

ولكنه حين يغادر الكنيسة يجد قانوناً آخر يحكم الحياة الواقعة  
ويصرفها ، ويجد مجتمعاً يقوم على أساس هذا القانون ، الذى لا علاقة  
بين روحه وروح المسيحية .

وكثيراً ما ذهبت إلى هذه الكنائس ، واستمعت إلى الوعاظ  
فى الكنيسة ، وإلى الموسيقى والتراتيل والأدعية ، وكثيراً ما استمعت  
إلى إذاعة الآباء فى محطات الإذاعة فى الأعياد المسيحية . . دائماً يحاول  
الآباء أن يعقدوا الصلة بين قاب الفرد وبين الله . ولكن واحداً منهم  
لم أسمعهُ يقول : كيف يمكن أن تكون مسيحياً فى واقع الحياة اليومية ،  
ذلك أن المسيحية إنما هى مجرد دعوة للتطهر الروحى ، ولم تتضمن تشريعاً  
للحياة الواقعة ، بل تركت ذلك لقيصر .

وكان من أثر هذا فى العالم المسيحى أن أصبحت المسيحية فى جانب  
والحياة الواقعة فى جانب ؛ وعلى توالى الأزمان أصبحت المسيحية  
محصورة داخل الكنيسة ، والحياة من حولها أبعد ما تكون عن روحها  
السمحة المتطهرة . فلما نشطت الكنيسة فى السنوات الأخيرة للاتصال  
بالجُمُوع من جديد ، لم يكن همها أن ترفع الناس إليها ، بل كانت طريقها  
أن تهبط هى إلى الناس . وإذا قلت تهبط ، فليست أعنى أنها تنبسط

وتواجه الحياة بحلول عملية ، إنما أعنى أنها تملق شهواتهم ورغباتهم ؛  
وتغاضى عن لذائذهم المأبوضة ونزواتهم الجامحة ، لتضمن ألا يعيد المجتمع  
نبيها ، كما نبذها في مطلع النهضة والإحياء .

نحن ببلاهة غبية ، وسطحية تافهة قد حاولنا بالإسلام هذه المحاولة ،  
لأن الإسلام لم يتضمن التشريعات التي تحكم الحياة وتصرفها ؛ بل لأننا  
بشعور العبيد وعلى طريقة القروء ، قد أردنا أن نجعل مصر قطعة من أوربا ،  
ولما كانت أوربا تحكمها القوانين المدنية لا الدينية ، فقد فعلناها نحن  
أيضاً ! دون فطنة إلى أن أوربا لم يكن لها مقر من ذلك ، لأنها لم تجد  
في المسيحية تشريعاً للحياة ، وإنما وجدت مجرد عقيدة روحية وصلاة !  
لقد فطن الإسلام إلى أن العقيدة لا يمكن أن تتحقق بذاتها  
في واقع الحياة ما لم تتمثل في نظام اجتماعي معين ، وتنحول إلى  
تشريعات تحكم الحياة ، وتكيف علاقاتها الواقعية المتجددة . ولكننا  
نحن بحماقة غبية لم نفطن إلى هذا الذي فطن إليه الإسلام ، وصاغ نفسه  
على أساسه : عقيدة تتمثل في شريعة ، وشريعة هي تفسير وتحقيق لهذه  
العقيدة ، ووحدة شعورية تشريعية ، تتألف منها حياة واقعة ، ممثلة  
في العقيدة والسلوك ، وفي العبادات والمعاملات ، وفي السرائر والجوارح ،  
وفي الأفراد والجماعات .

لقد سمعنا الأوربيين يقولون : إن الدين علاقة ما بين الفرد وربه ،

وليس له أن يتدخل في الحياة المدنية . . فرددنا كالبيغاوات الفارغة  
الدماغ هذا الذي سمعناه !

نعم ! الدين علاقة ما بين الفرد وربه في المسيحية ، ولأوروبا عذرها  
في هذا ، لأن دينها لم يبين لها كيف يتدخل في الحياة المدنية ، وحين  
تدخل آباء الكنيسة في تلك الحياة تدخلوا لصالح أنفسهم ، وبوحي  
من هذه المصالح ، لا بوحي من المسيحية التي لم تتضمن شيئاً عن الحياة  
المدنية . فلما ثقلت وطأة الكنيسة ورجالها على الناس ، وتحولت إلى  
سلطة دكتاتورية ، اتخذ من الدين ستاراً لمطامعها الدنيوية . . نفى  
الناس هذا السلطان عن رقابهم ، ووقفوا الكنيسة ورجالها عند حدهم  
الذي جعلته لهم الديانة ذاتها . أى عند أعتاب الكنيسة .

فأما الإسلام فقد أنشأ مجتمعات محكومة بأشرائعه ، التي يمكن الرجوع  
إليها هي ذاتها لوقف كل طغيان لمن قد يسمون أنفسهم «رجال الدين»  
حين يتشبهون برجال الكنيسة ، ويحاولون اكتساب سلطة دينية !

ومع وضوح هذه الحقائق ، وبساطتها ، نجد في جيل الأقرام الذي  
نعيش فيه من يحاول أن يبدو للناس مثقفاً جداً ! فينقع بفصل الدولة  
عن الدين ! لأن الدين يجب أن يتدبر شؤون الروح ، ويدع الحياة  
للقوانين الأرضية !

وفي فترات الاضطراب تبدو في الشعوب العريقة قزامة مجيبة وضالة.



وينفش البغاث الصغير ريشه ويختال . ولكن عهد الأقزام في مصر  
قصير الأجل مشرف على الزوال !

\*\*\*

إننى مؤمن كل الإيمان بأن لا نجاة لهذه الأمة ولا حياة إلا أن  
تعود إلى عقيدة ضخمة ، تنفض عنها قزامة الجيل وتفاهته ، وتملاً  
حياتها حركة وحيوية واقتراماً .

وهذه العقيدة الضخمة اليوم ليست شيئاً بالقياس إلى مصر  
إلا الإسلام .

إن العقيدة الوطنية وحدها لم تعد تسكفى ، بدليل أنها لا تستطيع  
أن تقاوم العقيدة الشيوعية فى كثير من أقطار الأرض . ذلك أن  
فكرة العدالة الاجتماعية بين الأفراد فى حياة المجتمع ، أخذت تطفى  
بقوة على النعرة الوطنية فى أوطان تقسم أهلها إلى عبيد وأسياد .

والإسلام هو وحده القادر على تحقيق الفكرتين جميعاً ،  
بلا تعارض ولا تصادم ولا مغالاة : فكرة الوطنية فى الوطن الإسلامى  
الأكبر حيثما مد الإسلام ظله . وفكرة العدالة الاجتماعية الكاملة  
فى هذا الوطن الكبير .

والإسلام لا يحقق هذه العدالة الاجتماعية الكاملة فى ذلك الوطن  
الكبير المسلمين من أهله وحدهم ، بل يحققها كذلك لجميع سكانه

على اختلافه الأديان والأجناس واللغات والألوان . . . وتلك مزيته الإنسانية الكبرى التي لا تحققها عقيدة أخرى .

ولكن ينبغي أن نكرر دائماً أن هذا كله لا يتحقق بمجرد أن يذهب الناس إلى المساجد ، ويحتفلوا بالمولد النبوي الشريف ، ويلقوا الخطب في مدح سيد المرسلين ! ولا بأن تعج الأرض بالمجاذيب والدرائش ، يتلون الأدعية ، ويقيمون الأذكار ، ويحملون المسابح ، ويتمنون أو يهدرون !

ولا يتحقق بأن تكون لنا « هيئة كبار علماء » تصدر قرارات الحرمان ، ثم تعود فتصدر صكوك الغفران ، لتغير الظروف والملاسات ، أو تصدر الفتاوى في تحظئة أبي ذر لأنه طالب بالعدالة الاجتماعية للفقراء ، أو لترفع العرائض الإنشائية ، تتضمن الوعظ الشريف ، ورثاء الأخلاق التي انحلت في هذا الزمان !

إن شيئاً من هذا كله لن يجدي شيئاً ، إنما الذي يجدي وحده أن يحكم الإسلام الحياة ويصرفها . أن تحكم الدولة حكماً إسلامياً . أن تستمد القوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالحكومة وعلاقات الحكومة بهم من الشريعة الإسلامية . وليس قانون الأحوال الشخصية وحده ، بل قانون العقوبات والقانون المدني والتجاري وسائر القوانين والتشريعات التي تكيف صورة المجتمع وتمنحه شكله ونظامه الخاص .

إن دستور الدولة الحاضر ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام . وليس لهذا من معنى إلا أن تستمد القوانين كلها من الشريعة الإسلامية ؛ والشريعة الإسلامية قادرة على تلبية الحياة العصرية ، ونموها وتجديدها . مع الانتفاع بتجار بنائنا نحن وبتجارب الإنسانية كلها فيما يتفق مع فكرة الإسلام الكلية ومبادئه العليا عن الحياة .

لست أزعج أن الفقه الإسلامي الحاضر قادر اللحظة على الإحاطة بكل مطالب الحياة العصرية الجزئية ، فقد وقف نمو هذا الفقه حقبة من الدهر طويلة . ولكن أصول الشريعة الإسلامية بما فيها من مرونة وشمول قادرة على أن تلبى حاجات الحياة — على النحو الذي أوضحته في مشكلاتنا الكبرى — وتبقى صياغة المواد القانونية ، المستمدة من الأصول العامة ، حسب الحاجات المتجددة أبداً<sup>(١)</sup> .

ولقد يخطر لبعضهم أن يقول : وعلام هذا العناء ؟ وما لنا لا ندع هذه الشريعة جملة ، ونستمد تشريعاتنا من تلك التجارب الجاهزة التي انتهت إليها البشرية أخيراً ؟

وهي قولة من استمرأ الاستعارة الجاهزة حتى فقد كل شعور بشخصيته وبقوميته ، وبتاريخه الحي الذي يعيش في كيانه . وقولة السطحي الذي لا يدرك كيف تتم الاستجابات بين الفرد والبيئة ،

(١) قام الأستاذ عبد القادر عودة بمجهود ضخم رائع في هذا المجال في كتابه : « التشرع الجنائي الإسلامي » في مجلدين نشر أولهما والثاني في الطريق .



وأخيراً فهي قولة الذي لا يعرف من أين تستمد الأمم عناصر البقاء والمقاومة في معترك الحياة .

إن الطريق الذي ندعو إليه نحن هو الطريق الذي يضمن لروح هذه الأمة أن تستشرف ، وتتطلع إلى حياة كريمة عزيزة ؛ والذي يمكنها أن تحقق للسكتلة الإسلامية البروز والتميز بين السكتلتين الشرقية والغربية ، البروز بمجتمع خاص له سماته الواضحة ، وله شخصيته المستقلة . وذو الرصيد الأصيل إنما يزيد رصيده وينمو بما يقع له من زيادات وعلاوات . فأما المفلس المستجدي فلن يكون يوماً ذا رصيد قائم ، وإن ظل حياته يسأل ويستجدي !

\*\*\*

لا بد للإسلام أن يحكم ليحقق وجوده ، وليحقق ذلك المجتمع الكامل العادل الذي رسمنا الكثير من خطوطه . وما كان شيء من ذلك ليحقق والإسلام بعيد عن الحكم في الحياة .

ولا بد للإسلام أن يحكم ليقدم للإنسانية مجتمعاً من طراز آخر ، قد تجد فيه الإنسانية حامها الذي تحاوله الشيوعية ، ولكنها تطمسه بوقوفها عند حدود الطعام والشراب ؛ وتحاوله الاشتراكية ولكنها طبيعتها المادية تحرمه الروح والطلاقة ؛ والذي حاولته المسيحية ولكنها لم تنظم له الشرائع ولم تضع له القوانين .

ولابد للإسلام أن يحكم لأنه العقيدة الوحيدة الإيجابية الإلهائية  
التي تصوغ من المسيحية والشيوعية معاً مزيجاً كاملاً ، يتضمن أهدافهما  
جميعاً ، ويزيد عليهما التوازن والتناسق والاعتدال .

والعالم لا يستغنى عن عقيدة إيجابية . والمسيحية قد أدت دورها ،  
ولم تعد عاملاً إيجابياً في واقع البشرية ؛ فلقد أصبحت الجماهير تقود  
الكنيسة ، والكنيسة تتبعها بلا توقف ولا تخرج ولا مدافعة حتى عن  
أقدس أقداسها وأشرف أهدافها في القلب والضمير !

وأخيراً يجب أن يحكم الإسلام ، لأن الإسلام كان أعرف  
بطبيعته وطبيعة الحياة وهو يقرر : أن لا إسلام بلا حكم ، ولا مسلمين  
بلا إسلام : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .  
صدق الله العظيم .

## شبهات حول حكم الإسلام

نقيم على الإسلام ، وعلى حكم الإسلام ، شبهات داكنة في نفوس هذا الجيل ، بعض هذه الشبهات ناشئة من الجهل الفاضح بكل شيء عن هذا الدين ؛ ذلك الجهل الذي لا يريد أصحابه أن يعترفوا بأنه نقص في ثقافتهم . على الأقل بوصفهم ناساً يعيشون في دولة دينها الرسمي هو الإسلام . والإسلام عقيدة الأغلبية من سكانها ، فهو إذن عنصر ضروري لدراسة المجتمع فيها ، ولكل دراسة عقلية أو فنية في محيطها . وبدلاً من أن يعتذروا عن هذا النقص المعيب في ثقافتهم ، فإنهم يتخذون منه فضيلة ، أو يستشهدون به على أنهم « مثقفون » !

وبعض هذه الشبهات ناشئة عن التباس فكرة الدين ذاته ، بمن يسمون في هذا العصر « رجال الدين » . وهو التباس مؤذ للإسلام ولصورته في نفوس الناس ، فهو لاء « الرجال الدين » أبعد خلق الله عن أن يمثلوا فكرته ، ويرسموا صورته لا بثقافتهم ، ولا بسلوكهم ، ولا حتى بزيمهم وهيتهم ؛ ولكن الجهل بحقيقة هذا الدين ، والثقافة المدرسية الباقية من عهد الاحتلال ، والتي ما يزال يشرف عليها الرجال الذين صنعهم الاحتلال ؛ والأدوات التنفيذية التي صاغها بيده ، لتسد مسده بعد رحيله هذا الجهل الناشئ عن تلك الثقافة . لا يدع للناس



صورة عن الإسلام يرونها إلا في هؤلاء الذين يعرفونهم « رجال دين »  
وهي أسوأ صورة ممكنة للإسلام ، ولأى دين من الأديان !

وبعض هذه الشبهات ناشئ عن التباس صورة حكم الإسلام  
ببعض أنواع الحكومات التي تسمى نفسها « حكومات إسلامية » .  
 وتمثيل هذه الحكومات لحكم الإسلام كتمثيل من يسمونهم « رجال  
الدين » لفكرة الإسلام ! كلاهما تمثيل مزور كاذب مشوه ، بل تمثيل  
النقيض للنقيض . ولكن الجهل بحقيقة فكرة الإسلام عن الحكم ،  
حتى بين « المتقنين ! » لا يدع صورة للحكم الإسلامي أخرى ، غير هذه  
الصورة المزورة الشائنة الكريهة .

وبعض هذه الشبهات ناشئ من التباس صورة الحاكم الإسلامي  
ببعض الشخصيات التاريخية التي ادعت أنها تحكم باسم الإسلام ؛  
وهي أبعد ما تكون عن روح الإسلام وقانونه . والجهل بكل ما هو  
إسلامي بحكم الثقافة الاستعمارية التي يتلقاها الجيل في المدرسة وفي  
الصحيفة وفي المجتمع يتيح لمثل هذا الالتباس أن يغيم على الأفكار  
والمشاعر ، ويفعل فعله في تنفير الناس من هذا اللون من الحكم البغيض !

وكل هذه الشبهات كان يكفي في جلاؤها مجرد المعرفة الصحيحة  
للحقائق التاريخية والاجتماعية للإسلام . أى أن يتلقى الجيل ثقافة حقيقية  
لائقة . أجل . لائقة ! فإنه لا يليق بمثقف أن يجهل كل شيء عن عنصر

أساسي مؤثر في مجتمعه وفي عقلية شعبه ، وفنه وأدبه ، ونظيرته إلى الكون والحياة . وليست هذه الثقافة عسيرة — كما يتصور الكثيرون — حين يتصورون الكتب الصفراء ؛ وتتمثل لهم صورة الدراسة الأزهرية بما فيها من ألغاز ومعميات ! كلا ! إن هذا ليس هو الثقافة الإسلامية المطلوبة للجيل ؛ فالإسلام يسر لا عسر ؛ وهو عقيدة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ؛ ونظام اجتماعي متوازن متناسق ، لا إقطاع فيه ولا ترف ولا حرمان ؛ ونظام للحكم ليس فيه حقوق إلهية ، ولا دم أزرق ، ولا استبداد ولا طغيان .

ومع أن جهل الجيل — والمتقين منه بخاصة — لا يصلح عذراً لأصحابه ، فإننا نؤثر هنا أن نناقش تلك الشبهات التي تقيم في نفوس الناس على حكم الإسلام . الناس الذين نعرف حسن نياتهم ، وبراءتهم من الدوافع الخبيثة . وهؤلاء سنناقش شبهاتهم البريئة هنا ، وتصوراتهم الناشئة عن الجهل وحده ، لاعتراض الغرض والهوى . فأما المغرضون الخبيثاء فوعدنا معهم فصل آخر حين نواجه المداوات حول حكم الإسلام !

### بدائية الحكم

يخلط الكثيرون بين النشأة التاريخية للإسلام ، وفكرة الإسلام المجردة ، القابلة للتوسع والشمول ، في التفريعات والتطبيقات . هؤلاء حين يسمعون كلمة « الحكم الإسلامي » تقفز إلى خيالهم

صور الخيام الساذجة في الصحراء ، وصور الأعراب الرحل على الإبل ،  
أو العرب المقيمين في الأكواخ ؛ ويتصورون بساذجة أن معنى الحكم  
الإسلامي هو العودة إلى تلك الحياة البسيطة الساذجة ، الخاوية من كل  
أسباب الحضارة الإنسانية التي استحدثت في خلال ألف وأربعمائة عام !  
وإذن فلا عمارة ولا مدنية ، ولا صناعة ولا تجارة ، ولا علم ولا فن ،  
حتى يشعر ذلك الفن العربي الأصيل ، ينجيل لهذا الفريق من الناس  
أن حكم الإسلام سيختم على أفواه قائله ومنشديه ، ما لم يحولوه إلى  
مواظف دينية وألفيات نحوية !

وليس حكم الإسلام وحده هو الذي يثير هذه الصورة المساحلة  
في خيالهم ؛ بل إن بعضهم يثير هذه الصورة في حسه مجرد الربط بين  
الحكم وعنصر الأخلاق ! ولست أنسى أن أحد « الدكاترة » في التربية  
العائدين من أمريكا كان يتحدث معي عن المجتمع الأمريكي ، فقلت :  
إن لهذا المجتمع مزاياه ؛ ولكن الذي أنكره عليه هو أنه يتفنى العنصر  
الأخلاقي من حساباته جملة ؛ ويعده عنصراً دخيلاً على الحياة . فانتفض  
في حماسة وأستاذية يقول : « إذا كننا سنتحدث عن الأخلاق ، إذن  
فلنرجع إلى عيشة الخيام » .

وبمثل هذه الروح سيتولى ذلك الدكتور العظيم إعداد جيل من  
المسلمين في معهد التربية ، يتولون بدورهم إعداد أجيال من أبنائنا ،  
الذين نسلهم إليهم في ثقة واطمئنان !



إن هؤلاء جميعاً يخلطون كما قلت بين النشأة التاريخية للإسلام ،  
و بين النظام الإسلامى ذاته كمجرد نظام .

إن النظام الإسلامى ليس معناه فقط صورة ذلك المجتمع الإسلامى  
فى نشأته ؛ بل معناه كل صورة اجتماعية خاضعة لفكرة الإسلام  
الكلية عن الحياة .

والنظام الإسلامى يتسع لعشرات من الصور ، تتفق مع الثواب  
الطبعى للمجتمع ، ومع حاجات العصر المتجددة ، مادامت فكرة  
الإسلام الكلية تسيطر على هذه الصور فى محيطها الخارجى الفسيح .  
صورة من هذه الصور . صورة تشمل كل حضارة البشرية النظيفة  
وكل تجاربها العالمية الواقعية ، وتجاربها الفكرية والشعورية ، اللائقة  
بعالم يصدر عن الله . . هى التى نريد تحقيقها عندما نقول : إننا نريد  
استئناف حياة إسلامية ؛ محكومة بالقوانين الإسلامية<sup>(١)</sup> .

إن الشظف والبداوة ليسا أصلاً من أصول الإسلام كما يعتقد بعض  
السذج الفضلاء ! إنما كان الشظف ظاهرة اقتصادية فى مرحلة خاصة ؛  
وكان حث الناس على الصبر عليها ضرورة من ضرورات الواقع ، كيلا  
تتهافت نفوسهم ، وتنهار قواهم ، وتخذلهم طاقتهم على المقاومة والكفاح ،  
والدعوة فى حاجة إلى المقاومة والكفاح . فأما بعد ذلك فكل فرد  
مطالب بأن يستمتع فى الحدود التى لا تصل إلى مستوى الترف ، ولا تدع

---

(١) « نحو مجتمع إسلامى » بحث يتضمن صورة شاملة للمقومات الأصلية  
لهذا المجتمع . أرجو أن يفشر قريباً بعون الله .

الإنسان عبداً لشهواته ولذائذه ، كذلك الفريق التافه الذى يسمى  
فى عصرنا هذا « أولاد الذوات » !

كذلك يخلط الكثيرون بين الشريعة الإسلامية فى ذاتها ،  
وبين النشأة التاريخية للفقہ الإسلامى ، فيحسبون أن معنى استیحاء  
القوانين من الشريعة ، هو الوقوف عند الأحكام الفقهية التى وردت  
فيها — وهى بطبيعة الحال لا تكفى لمواجهة حاجات المجتمع كلها —  
على توالى الزمان .

إنه خلط مضحك . فهذه الشريعة بما فيها من مرونة وشمول ،  
استجابت لمطالب حياة البادية ، كما استجابت فيما بعد لحياة الدولة  
الناشئة فى عهد محمد ، المتوسعة فى عهد عمر . ثم ظلت تستجيب لحياة  
الحضارة فيما بعد ، ما بقيت فى الأمة الإسلامية حياة . ثم توقف نمو الفقہ  
حينما توقفت حيوية الأمة الإسلامية ذاتها . فإذا دبّت الحياة فى هذه  
الأمة فالشريعة الإسلامية حاضرة ، تلبي حاجاتها المتجددة ، ومطالبها  
المتغيرة ، بما فيها من سعة ومرونة وشمول .

وإنه لمن سوء الحظ أن تكون جمهرة المشتغلين بالتشريع فى مصر  
اليوم قد تلقت تعليمها كله فى ظل عقلية تشريعية أجنبية ؛ وأنها  
لا تعرف عن الشريعة الإسلامية إلا السير الزهيد . فمن الصعب أن  
تتصور هذه الجمهرة ، أن الشريعة الإسلامية قادرة على أن تمد المشرع  
الحديث ، بكل حاجات الحياة الراهنة المتجددة .

إن بعض هذه الجهرة ليسخر من هذه الفكرة ؛ وهو أحق  
بالسخرية . لأنه يسخر سخرية الجهل والكسل ، وسخرية الفتنة  
بمحضارة لم يشترك في صنعها ، وإنما هو عالة عليها !

ولو كانت لنا عقلية تشريعية يقطعة ، لأدركنا من تطبيق القانون  
الفرنسي سبعين عاما ، ذلك التصادم الذى تحدثنا عنه بين روح القانون  
وروح الجماهير ، وذلك التنافر بين طبيعته وطبيعة الشعب الذى يطبق  
عليه ، ومدى الفشل فى إقناع هذا الشعب بمدالة هذه القوانين التى تسن له .  
ولو اقنع الشعب بمدالة القانون ، ولو اتفقت روحه مع روحه ،  
ما عاشت تلك الظاهرة التى أبرزناها . ظاهرة تسكتل الجماهير فى صف  
الخارجين على القانون ، واعتبارهم أبطالا يستحقون الإعجاب والحماية  
والمساعدة !

إن استيعاء الشريعة الإسلامية سيمحقق استجابة الناس للقانون  
أولا : لأنه سيمنحهم عدالة اجتماعية كاملة ؛ ويقف فى سبيل الطغاة  
والمستغلين ، وينشئ مجتمعا سليما من الآفات التى تفسد فطرة الناس ،  
وتحرمهم الثقة ، وتشيع فيهم القلق والسخط والتمرد . وثانياً : لأنه سيتصل  
فى نفوسهم بعقيدة قوية ، وتتفق روحه مع أرواحهم فى الأعماق .  
وسيكون التعاون بين الجمهور والسلطات مستمداً من أن هذا التعاون  
لا يرضى السلطات الأرضية وحدها ، ولكنه يرضى كذلك سلطان  
السماء ، ويحقق عدالة السماء .



إن القانون دائماً يتضمن روادع وزواجر ، ويحول بين الناس وبين الكثير من شهواتهم المستحبة ، المرتكزة إلى ميولهم الفطرية ؛ فيجب لكي يطيعوه ويحترموه من قلوبهم ، أن يستند إلى قوة أعق في كيانه . وقوة العقيدة كفيلة بأن تسنده وتؤيده ، حتى وهو يمنع عن الأفراد ما يلذ لهم وما يطيب !

على أن الإسلام بما فيه من مراعاة لحاجات الفرد والجماعة ، ومطالب الحياة المتجددة ، والمجتمعات المتحضرة ، يملك أن يلبي هذه الحاجات والمطالب في يسر ومرونة وسهولة .

ولكن ينبغي أن يكون واضحاً أننا إذ نقول : إن الإسلام يملك أن يساير المجتمع المتحضر المتجدد . . لا نغني إخضاع الإسلام ومبادئه ونظمه لشهوات الجماهير العارضة ، ونزواتها الطارئة ، تملقاً للجماهير ، باسم التحضر والتجديد ، على طريقة من يسمونهم « المسامين العصريين » أو الأقزام الذين يدعونهم في جيل الأقزام « متحررين » !

لقد فهمت الكنيسة في أمريكا ما يفهمه أولئك العصريون والمتحررون ؛ فاستحالت من هيكل عبادة إلى ساحة رقص ، ومن قدس تطهر إلى ساحة لذة . . ولست أنسى ذلك « الأب » الذي انتهى من الصلاة والترتيل ، ليقود « أبناءه وبناته » إلى ساحة الرقص الملحقة بالكنيسة ؛ ووقف ينظر برضا إليهم وإلين أزواجا أزواجا متلاصقة .

تدور في الساحة على أنغام الموسيقى ، في ظل الأنوار الحمر والصففر  
والزرق التي تلقى ظلال الرومانسية العنيفة ، وتهيج الدم في عروق  
الشباب ! ثم تقدم إلى « الجراموفون » ليختار « اسطوانة » يرقص عليها  
أبناؤه وبناته تحت سمعه وبصره ، فاختار قطعة غزل جنسية صارخة ؛  
تمثل حواراً بين شاب وفتاة ، عاندين من السينما بعد منتصف الليل ؛ وهو  
يمسك بهافي حجرته الدافئة ، ولا يطلقها لتعود إلى أهلها لأن الليلة باردة ،  
وفي نهاية كل مقطع تتردد تلك الجملة : But baby; it is cold outside.  
« يا صغيرتي إنها باردة في الخارج ! »

كلا ! نحن لا نعني ذلك أبداً ، إنما نعني صورة من صور المجتمع  
تحقق مطالب العصر وتساير نموه ؛ وهي في ذات الوقت تخضع كل  
الخضوع لروح الإسلام النظيفة ، ومبادئه القوية ، التي تلبي أرقى صور  
الحضارة الصحيحة السليمة ، حضارة الإنسان ، لا إباحية الحيوان .

### حكم المشايخ والدراويش

هنالك آخرون يتصورون أن حكم الإسلام ، معناه حكم المشايخ  
والدراويش ! من أين جاءوا بهذا التصور ؟ من الثقافة السطحية  
الناقصة ، ومن ملابسات الواقع في هذا الجيل . . فأما الإسلام الحقيقي  
الصحيح ، فلا يعرف هذا الوضع ، لا في أصوله النظرية ، ولا في  
واقعه التاريخي .

حتى تلك الأزياء الخاصة للمشايخ وال دراويش . . إنها ليست شيئاً في الدين ، فليس هنالك زى إسلامى وزى غير إسلامى ؛ والإسلام لم يعين للناس لباساً ، فاللباس مسألة إقليمية ؛ ومجرد عادة تاريخية . ومحمد بن عبد الله لم يلبس حبة وقفطاناً ، أوقفطاناً و « كا كولة » وإنما لبس ثيابه العربية التي كان يلبسها قومه وجيله . كذلك لبس المسلمون في فارس ثيابهم الفارسية ، والمسلمون في مصر ثيابهم المصرية .

وعلام يتميز بعض المسلمين من بعض بلباس ؟ وليس في الإسلام رجال دين ، ولا هيئة « إكليروس » لا تقام الطقوس الدينية إلا بوساطتها . والتفقه في الدين اجتهاد كالتفقه في الطب والهندسة والتجارة وسائر المعارف الإنسانية الأخرى .

نعم قد توجد مناصب رسمية كمناصب القضاء ، ولكن الإسلام لا يعرف أن هناك قاضياً للأحوال الشخصية يحكم بالقانون الإسلامى ، وقاضياً للعقوبات والمدنيات يحكم بقانون غيره . الإسلام لا يعرف إلا شريعة واحدة تنظم العقوبات والشؤون المدنية ، كما تنظم أحوال الزواج والطلاق والميراث ؛ وتخضع الجميع لفكرة كلية واحدة تصدر عنها هذه التفريعات في شتى نواحي النشاط الإنسانى . والذي يتولى القضاء في هذه النواحي جميعاً أو في ناحية واحدة منها — حسب تخصيص الدولة له — إنما يتولاه باسم تفقهه في الشريعة كلها أو بعضها .



كما يتولى الطبيب عمله لتعلمه الطب العام أو التخصص في فرع منه ؛  
وكما يتولى المهندس عمله لتخصصه في الهندسة أو فرع منها . والقاضي  
ليس رجل دين في الإسلام . إنما هو مسلم حذق فرعاً من فروع  
المعرفة ، فأُسند إليه العمل الذي يحسنه . ولكل امرئ ما يحسنه  
في الحياة .

والخدمة الدينية — كمجرد إمامة الصلاة — ليست عملاً يأجر  
الإسلام من يقوم به من بيت مال المسلمين ! ما لم تكن لهذا الإمام  
وظيفة أخرى يؤديها . كالقاء دروس في المسجد ، أو القيام بإدارته  
من الناحية النظامية لا التعبدية . فإمامة المصلين ليست وفقاً على شخص  
من المصلين . إنما يؤمهم أفضل الموجودين ، وتصح صلاتهم جماعة أو فرادى  
إلا في صلاة الجمعة خاصة ، ومن هذا البيان يتضح أن ليس في الإسلام  
« رجال دين » يخشى أن يتولوا الحكم إذا صار الحكم إلى الإسلام .

ذلك من الوجهة النظرية ؛ فأما من وجهة الواقع التاريخي في الإسلام  
فإن حذق الفقه الإسلامي لم يكن بذاته مرشحاً للحكم ، وتولى الأعمال  
في القيادة والإدارة وما إليها ، حتى في أزهى عصور الحكم الإسلامي  
الكامل . إنما كان الحذق في كل حرفة هو المؤهل لها دون نظر إلى درجة  
الفقه الديني لصاحبها ، ولا حتى الميزة السكبري التي يعتبرها الإسلام  
أساساً للتفاضل بين الناس ، وهي التقوى .

١٣٨٥

كتب أبو بكر أعرف أصحاب رسول الله بروح الإسلام ، إلى  
أبي عبيدة بن الجراح ، الذى كان يلقبه رسول الله «أمين الأمة» يقول :  
« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة  
ابن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد وليت خالداً قتال العدو  
فى الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير  
منه وأفضل ديناً . ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك .  
أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد . »

فالذين يخشون — لو حكم الإسلام — أن يبصروا فيروا على رأس  
الجيش مثلاً فى المعركة ، أو فى مصلحة الكيمياء أو الطب الشرعى ،  
أو فى وزارة الأشغال أو المالية ، شيخاً مطمئناً ، أو درويشاً معماً لجرد  
أنه قرأ كتب الفقه والسنة ، أو حفظ المتون والحواشى والشروح ،  
أو أتقن التراتيل الدينية ودلائل الخيرات . . أولئك فليطمئنوا . فواقع  
الإسلام التاريخى ، كأصوله النظرية ، لا يعترف إلا بالكفاية الخاصة فى  
العمل الخاص . ولكل وجهة هو موليها .

إن حكم الإسلام لا يتحقق لأن فى الحكم طائفة دينية — وليس  
فى الإسلام كما ترى طائفة دينية — إنما يتحقق لأن القانون الإسلامى  
ينفذ ، ولأن فكرة الإسلام تحكم ، ولأن مبادئه ونظمه تحدد نوع  
الحكومة ، وشكل المجتمع . وهذا كل ما هناك .

فأما نوع الحكم الذى يحتمه الإسلام فهو الحكم الشورى . والقرآن ينص على هذا نصاً : « وشاورهم فى الأمر » والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد » فيقرر مبدأ الشورى فى الحكم وفى الإدارة تقريراً صريحاً . لأنه وهو النبي لا يملك أن يؤمر أحداً دون مشورة المؤمنين .

فأما طريقة الشورى فلم يحددها الإسلام تحديداً معيناً ، لأنها مسألة نظامية ترجع إلى حاجات كل عصر ، ووسائله وإمكانياته فى تحقيق المبدأ ، فى كل مكان وفى كل زمان .

حين كان أهل رأى الذى يمثل الشعب كله مجتمعين فى المدينة حول النبي — وهم الصحابة — كان النبي يستشيرهم — فيما لا وحي فيه ولا نص بطبيعة الحال — ويترك لهم حرية القول والتصرف فى شؤونهم الدنيوية ، لأنهم أخبر بها . ومعنى دنيوية هنا أنها لا تتعلق بحكم شرعى أو اجتماعى ، وإنما تمثل الخبرات العملية ، كفنون القتال ، وزراعة الأرض ، وحماية الثمار . وما إليها . وهى مانستطيع أن نسميه فى عصرنا الحاضر الشؤون العلمية البحتة والشؤون العملية التطبيقية .

فأما الشؤون التشريعية الخاصة بالإنسان : روحه وعقله ، وعلاقاته بالناس وعلاقات الناس به ، والحدود بين حقه وواجبه . الخ ، فتلك مسائل يرجع فيها إلى النصوص والقياس ، أى إلى القوانين الإسلامية



المحددة ، أو المبادئ العامة والفكرة الكلية . وما يتفق معها فهو منها .  
وقد ظلت الشورى مقصورة على المدينة ، ما ظلت المدينة تمثل أهل  
الرأى ؛ فلما تغير الوضع شيئاً توسع الخليفة الأول أبو بكر فاستشار أهل  
مكة في حرب الشام . إذ كانت المسألة عملية حربية خارج الحدود  
العربية كلها ، تعود آثارها على من في مكة كما تعود على من في المدينة .  
فإذا انتهينا في هذا العصر إلى أن يصبح رأى الجماهير لا يمثل من  
يقيمون في القاهرة وحدها ، ولا الاسكندرية ، ولا أية مدينة من المدن ،  
فالطريقة إذن أن نستشير الجميع بالطريقة التى تكفل الحصول على آراء  
الجميع . . . وهى مسألة نظامية تتعلق بالتنفيذ . أما المبدأ فهو مقرر فى  
الإسلام تقريراً أصيلاً واضحاً . كل ما يحتمه الإسلام هو إزالة القيود  
التي تجعل الانتخاب غير ممثل لحقيقة الرأى فى الأمة . فلا يكون الناخب  
تحت رحمة صاحب الأرض أو صاحب العمل أو صاحب السلطان . كما  
هو واقع الآن .

والحاكم فى الإسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد هو إرادة  
المحكومين . فالبيعة الاختيارية هى الطريق الوحيد لتلقى الحكم .  
والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ . خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى  
قامت على أساس الاختيار المطلق . ولا يتعارض هذا مع وصية عمر  
أن تكون فى واحد من ستة فقد كانت هذه نصيحة للمسلمين ، ولم تكن

أمرأ واجب الطاعة . ولو اختار المسلمون واحداً من غير الستة لاختاروا .  
ولكن هؤلاء كانوا بالإجماع أصلح الجميع ، فاختاروا واحداً منهم برضاهم  
وإذنبهم ، لا بأمر عمر ووصايته .

ولما عدل بنو أمية عن هذه القاعدة الإسلامية الأساسية في الحكم ،  
رده إليها الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز . رده إلى الأمة  
التي يجب أن تختار حكامها حرة طائعة مختارة .

صعد المنبر فقال :

« أيها الناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني  
فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين . وإني قد خلعت مافي  
أعناقكم من بيعتي . فاختاروا لأنفسكم » .

فقال الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضيناك . فلِ الأمر  
بالمين والبركة .

وبذلك رد الأمر إلى نصابه في ولاية الأمر . فلا ولاية بغير  
شورى ورضى وقبول .

والحاكم الإسلامي يتلقى طاعته بعد توليه من قيامه على تنفيذ  
الشريعة الإسلامية ، لا من أي اعتبار آخر . وذلك عهده مع المحكومين .  
فإذا لم ينفذ الشريعة فقد سقطت طاعته عليهم . يقول صاحب هذا  
الدين : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه

زبينة — ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » وواضح في هذا الحديث توقيت  
السمع والطاعة بإقامة كتاب الله تعالى ، فليست هي الطاعة المطلقة  
لإرادة الحاكم ، وليست هي الطاعة الدائمة ولو ترك شريعة الله ورسوله .

بهذا وحده يقوم الحكم الإسلامي ، لا بوجود طائفة معينة في  
الحكم من المشايخ وال دراويش كما يتصور الكثيرون

ذلك كذلك من ناحية الأسس الدينية . . ثم أحب بعدها أن  
أطمئن الخائفين من حكم الإسلام أن يحيمهم بالمهايل وال دراويش  
في الدواوين ! أحب أن أطمئنهم إلى أن نوعاً من أنواع الحكم لن  
يطارد هؤلاء كما يطاردهم الإسلام !

إن حكم الإسلام يعد هذه الطوائف — في أوضاعها الحالية —  
متبذلة متعطلة ، لا تنتج شيئاً وهي قادرة على الإنتاج . فسيجند هذه  
الجموع للعمل المنتج ، لتأتي للأمة بشيء يعينها على الحياة .

إن حكم الإسلام لن يدع الدراويش يتدروشون ، ولا مشايخ  
الطرق يعيشون على النذور . . إن الإسلام يطلب إلى كل فرد أن  
يعمل عملاً يأجره عليه أجراً . فلا أجر بلا جهد ، ولا جزاء بلا عمل .  
والصلوات والدعوات عبادة شخصية وليست عملاً اجتماعياً ؛ أما إقامة  
الأذكار وتلاوة الأوراد ، فذلك أشياء تعرفها عصور التبطل ، ولا تعرفها  
عصور الحياة والنشاط .



إن العهود الإقطاعية هي التي ترزق المشايخ المتبطلين ، والدراويش المهبولين ، وتخلع عليهم وتعترف بوجودهم . . لأن هذه كلها أجهزة لتخدير الجماهير عما هي فيه من حرمان وشقاء . فأما حكم الإسلام الذي يكافح الإقطاع ، ويرد عن الناس الاستغلال ، فليس في حاجة إلى هذه الأجهزة . فسيوجه هذه المجموع المتعطلة المتبطرة للعمل ، وسيهيئ لها مرافق العمل ، لأنه سيعمل للجميع ، وسيأخذ من القادر للعاجز ، وسيجمع من الضرائب وغير الضرائب ما يحتاج إليه المجتمع بلا تخرج من مس الأغنياء إلا بقفاز الحرير ؛ وسينفق ما يجمعه لمصلحة المجتمع كله لا لحساب المحظوظين دون المنبوذين .

وعندئذ لن يكون المشايخ المتعطلون ، والدراويش المتبطلون ، هم سادة عهده ، بل سيكونون طريديه ، إن لم يغيروا ما بأنفسهم ، ويبدلوا وسائل كسبهم ، ويعملوا مع العاملين في حقل الإنتاج المثمر - حقل الحياة .

### طفيان الحكم

ويجزع الكثيرون من المفكرين ورجال الفنون من حكم الإسلام أن ينصب لهم المشائق أو يحرقهم بالنار أو يلقى بهم في ظلمات السجون ! لماذا ؟ لأن الحكومة الدينية من طبيعتها الاستبداد والظلم ، وخلق الحريات وكنتم الأنفاس ، وضيق الأفق وجمود التفكير . . . !

ومن أين جاءت هذه الصورة البائسة المنكدة لحكم الإسلام وحكومة الإسلام أيها المفكرون المثقفون ؟ إنها جاءت من محاكم التفتيش في عصور الظلمات ؛ تلك التي حرقت العلماء ، وقتلتهم بالخوازيق وألقت بهم إلى الحيات والثعابين . كما جاءت من الحكومات القائمة اليوم باسم الدين في بعض بلاد المسلمين .

ولكن واحدة من هذه الحكومات ليست من الإسلام في شيء . وهي لا تعتمد على الإسلام ، إنما تعتمد على الجهل الفاشي ، والانحطاط العقلي ، والتأخر الفكري ، في البلاد التي قامت بها في القديم أو الحديث .

أعطت هذه الشعوب الخاضعة للاستبداد علما ورقيا ونورا ، ومعرفة بالدين . . تسقط عنها هذه الغشاوة ، وتدرك أن الإسلام في صفها على الحاكمين المستبدين ، وليس في صف هؤلاء الحاكمين .

أفإذا ادعى الحاكم المستبد أنه يستبد باسم الدين كان ذلك تهمة لهذا النوع من الحكم يوجب إقصاءه عن الحياة ؟ إذن فما الرأي في الحكم الديمقراطي الذي تحكم اليوم باسمه مصر والعراق والأردن ، وكلها تحكم - والحمد لله - حكما ديمقراطيا دستوريا برلمانيا على آخر طراز في الدساتير !

أهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ؟ وجهاز الدولة كله يعمل لحساب

الرأسمالية ، وهذه الملايين جائعة عارية مريضة مستعلة ، ولا حامى لها ولا نصير ؟

أهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ؟ و « نفر البوليس » يملك أن يتهم أى فرد فى عرض الطريق أنه ارتكب جريمة ما ، ثم يقبض عليه ويصفعه ويركله ويشتمه ، ويحرقه فى الوحل إذا تلبى عليه ، حتى يذهب به إلى قسم البوليس ، ليحرق له محضراً . وكل ذلك قبل أن يعرض على النيابة ، وقبل أن يقدم إلى القضاء ، وقبل أن يتقرر إذا كان مجرمًا أو بريئًا من المحاكمة بعد التحقيق !

أهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ، تلك التى يقع فيها ما يرويه رجل كالأستاذ المجاهد محمد على الطاهر فى كتابه الجامع « معتقل هاكستب » يقول :

« وقد بلغ الذعر بوالدة « على عمار » الطالب بكلية الحقوق بجامعة فاروق الأول أحد المعتقلين وشقيقاته البنات أن اختبأن تحت السراير هرباً من نيران البنادق السريعة الطلقات فقلبت السراير وصرخ قائد القوات فيهن فانهقدت ألسنتهن .

« ودام البحث ثلاث ساعات عبثت فيها الأيدى بكل مقدس وعزير كخلع البلاط وكسر الدواليب وتمزيق المراتب والأغطية ، ويتحول المنزل بهمة رجال البوليس السياسى إلى نخالة أمام أعين الأطفال والنساء والشيوخ .



« ويساق رجال الأسرة بأكملها إلى المعتقل ضرباً بالعصى والسيوط في جميع أجزاء الجسم ، من باب المنزل إلى باب المعتقل .  
« وعادت النساء إلى الأم المشدوهة المتطلعة إلى وليدها وأبيه وأشقائه وهم يجلدون أمامها ، فوجدن المسكينة قد أصيبت بالشلل لا تتكلم ، وما زالت حتى الآن .

« وقد أثبت الطبيب الشرعى في تقريره الذى قدمه إلى القضاء العادل أن على عمار الطالب بكلية الحقوق بجامعة فاروق . ولتهم في الجناية العسكرية قد نزعت أظافره !

أهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ، تلك التى يقف متهم فيها أمام المحكمة يروى ما نشرته إحدى الصحف اليومية الكبرى فى مصر على النحو التالى :

« ثم جىء بعبد الفتاح ثروت وهو المتهم الثالث فى قضية الاعتداء على الأستاذ حامد جودة وأجلسته المحكمة على مقعد .

« وأجاب بناء على مناقشة الأستاذ حسن العشماوى بأنه لم يعترف بأى شىء فى التحقيق ، وأن التعذيب جعله فاقد الشعور .

« وروى بصوت مرتعش ضعيف صنوف التعذيب فقال : إن اللواء طلعت بك هدهد بالتشريح إذا لم يعترف ، قائلا : إن البلد فى أحكام عسكرية .

واستطرد يقول : وأخذوني إلى غرفة مع الضابطین العشري وفاروق كمال ، وجردوني من ملابسی ونزلوا فی ضرب من تسعة مساء إلى أربعة صباحا .

« ولقد قسموا أنفسهم أربع مجموعات كل مجموعة من ١٢ عسكريا وضابطا . ووضعوا رجلی فی الفلکة واستمر الضرب حتی أن الفلکة انكسرت .

» ثم استعملوا كرايبج المهجانة . ولما أفقت من إغمائي قال لي طلعت بك : هذه هي الجولة الأولى والبقية تأتي .

« وأخذوني إلى إبراهيم عبد الهادي باشا فقال لي : أنا عندي أمر أني أموتك . ثم أمر بموالاة تعذيبی .

« وكان التعذيب على أربع درجات بالضرب بالعصى والكرايبج ثم السكى بالنيران . وأحضروا سميخ حديد محمی ، ولكن الضابط محمود طلعت طلب من الضباط أن يكفوا عني قائلا : ده صاحبي وسيعترف بكل شيء .

« ثم نمت على الأسفلت فكانوا يطرقون الباب حتی يهرب النوم من عيني ، وما كانوا في حاجة إلى ذلك لأنني لم أكن أستطيع الرقاد على أي جزء من جسمی المشوى كله .

« ثم طالبوني بالاعتراف وهددوني إن لم أفعل أن يعتدوا على اعتداء متكرراً ، وفعلاً تقدم واحد يريد الاعتداء على ، فقلت له : أنا أعرف أنني

لا أستطيع مقاومتك وأنت يمكنك أن تفعل معى هذه الجريمة ،  
ويمكنك أن تنجو من عقاب القانون ، ولكنى أريد أن أقول لك  
قبل أن تبدأ : إن الله لن يترك هذه الجريمة بلا حساب . فابتعد عني .  
« وظل تعذبنى . وتلفت أعصابى . . وكنت لما أذهب إلى  
اسماعيل عوض بك وأشكوه يضرب الجرس ويأتى الحرس فيقول  
لهم : هاتوه لى أخرس خالص !

« وجاءنى ابراهيم عبد الهادى باشا ٤ مرات وقال لى أنا أبهدلك  
وأبهدل أهلك وأنا الحاكم العسكرى .

« كما جاء النائب العام محمود منصور باشا فلما تقدمت له شاكياً قال  
أنا عارف كل حاجة . وتركنى .

« إن من الغريب حقاً أننى حينما حضرت اليوم لأداء الشهادة  
وجدت بعض رجال البوليس معهوداً إليهم المحافظة على الأمن . وكنت  
أعتقد أنهم الآن أمام المحكمة لمعاقبتهم على ما ارتكبوه من آثام .  
« الرئيس : هل طلبوا منك أقوالاً معينة ؟

« — نعم . أن أقول : إننى أعرف مالك وعاطف وإننى مشترك  
فى الاعتداء على حامد جوده .

« وما كاد المتهم ينتهى من هذه العبارة حتى ارتجف بدنه وحمق  
فى الهواء وأصيب بنوبة عصبية إغمائية . وجعل يرسل شهيقاً عصبياً  
مؤلماً ، أبكى معظم الحاضرين فى القاعة .



« وبادر رجال البوليس برش الماء على وجهه كما خف إليه طبيب من الموجودين وحملوه إلى الخارج .

« وطلب الأستاذ مختار عبد العليم إثبات ذلك في محضر الجلسة فوافقت المحكمة ، وأضاف الرئيس أن يثبت أيضاً أن النوبة طالت مدة طويلة !

فإذا كان هذا كله ، وكثير غيره مما ترويه قصة كل متهم سياسي في تاريخ مصر الحديث قد وقع ، فهل الديمقراطية الدستورية البرلمانية هي التي أنتجتة ، وهي المسؤولة عنه ، وهي التي يجب أن تقصى عن الحكم ، لأنه في ظلها ترتكب هذه المنكرات ؛ كما يقال : إنها ارتكبت وترتكب في العصور المظلمة وفي بعض البلاد المعاصرة باسم الإسلام ؟ إن المرجع في الحكم على نظام ما يجب أن يكون هو قواعده وأصوله . فأما حين تخالف هذه القواعد والأصول ، بسبب الجهل أو الانحطاط ، أو أية عوامل أخرى ، فالذى يجب أن يقوله المخلصون للحق في هذه الحالة : إن أصول هذا الحكم ليست مرعية . وإنه يجب أن يرجع إلى هذه الأصول والدعوة إلى هذه الرجعة تكون إذن قوية لأنها ترتكن إلى أصل معترف به ، واسكنه مهمل في التطبيق .

لقد كان إقصاء الإسلام عن الحكم يكون مقبولا ، لو كان الخائفون من الاستبداد في ظله ، أو المعرضون الذين يخوفون من هذا الاستبداد ،

يقولون إن طبيعة الإسلام تدعو إلى الاستبداد من الحاكم ، أو تدعو  
الحكوميين إلى الرضى والخنوع !

ولكن الإسلام هو هو الدين الذى قرر للمجتمع نظاما لا سيد فيه  
ولا مسود ، ولا أشراف فيه ولا عبيد نظاما يجعل أبا بكر وعمر —  
أكبر صاحبين لرسول الإسلام — تحت إمرة مولى من الموالى  
وقيادته ، فلا يرى أحد فى هذا شيئا ولا يريان . نظاما يدع ابن  
الرجل من عامة الشعب فى مصر يضرب « ابن الأكرمين » ، ابن  
حاكم مصر عمرو بن العاص ، بأمر الخليفة وأمام الجموع . نظاما ينذر من  
يقبلون الاستضعاف والذل بالعذاب الأليم : « الذين تتوفاهم الملائكة  
ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض !  
قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم  
وساءت مصيرا » ويجرضهم على القتال لحقهم : « ومن قتل دون مظهره  
فهو شهيد » وينذرهم لو سكتوا عن الحاكم الظالم فلم يغيروا عليه : « من  
رأى سلطانا جائراً مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة  
رسول الله ، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل  
ولا قول . كان على الله أن يدخله مدخله » .

أنهذا هو النظام الذى يشفق المشفقون أن يؤدى إلى استبداد  
الحكام واستسلام الحكوميين ؟ أم هو التحمل والتضليل ؟

بقي الخوف من ضيق آفاق القائلين على الحكم الإسلامي وجود  
تفكيرهم . وما أحسب هذه الصورة قامت في أذهان هؤلاء الرفاق ،  
إلا من اقتران حكم الإسلام بعلم الشيوخ ومساجح الدراويش !

فإذا تبين أن هؤلاء ان يكونوا أسناد حكم الإسلام في مصر ، بل  
طرداه ، مالم يغيروا ما بأنفسهم ، ويعملوا عملاً منتجاً غير مجرد الصلوات  
والأذكار والتراتيل . إذا تبين هذا فيجب أن تخفى هذه الصورة الفكدة  
لحكم الإسلام ، مالم تكن التهمة موجهة لمبادئ الإسلام في ذاتها  
لا للمشايخ والدراويش . فهل إنه لسكذلك ذلك الدين العظيم ؟

إن أحداً لم يجرؤ إلى اليوم أن يتهم هذا الدين ذاته بضيق الأفق  
والجود ، وهو يعرف عنه شيئاً يسمح له بالحديث في الموضوع . فأما  
الذين يخوضون فيما لا يعرفون ، فهم لا يستحقون الاحترام ، لأنهم  
لا يحترمون أبسط قواعد الجدل والحديث .

إن هذا الدين لا يدخل نفسه أبداً في الشؤون العامة البحتة ،  
ولا العلوم التطبيقية المختصة ، باعتبارها من أمور الدنيا . و « أنتم أعرف  
بشؤون دنياكم » قاعدة أساسية فيه . وعندئذ يخرج نفسه نهائياً من الميدان  
الذي حشرت الكنييسة نفسها فيه في القرون الوسطى ، فخرقت العلماء  
وسجنتهم لأنهم يتحدثون في العلم ، وهي تحشر نفسها فيه !

فأما شؤون الاجتماع وشؤون العبادات ، وسائر ما يتعلق بروح  
الإنسان وفكره ، فكل مالم يحلل حراماً منصوصاً عليه نصاً صريحاً ،



أو يحرم حلالاً منصوباً عليه نصاً صريحاً ، فهو رأى يحتمل الصواب والخطأ ، ويجادل صاحبه بالحسنى ، ويحميه الإسلام أن يصيبه الأذى ؛ إلا أن يكون كفراً صراحاً بواحاً ، لا يحتمل الشك ولا التأويل .

فأما الحدود الإسلامية فتلک شيء آخر . شيء يدخل في دائرة الجرائم الاجتماعية التي تصان بها حرمة المجتمع وكرامته ومصالحته . فإذا خطر لأحد أن يرميها بالقسوة ، وأن يتحدث عنها باسم المدنية والهمجية فذلك شأن آخر . لنا فيه حديث .

إن هذه الحدود كقطع يد السارق ، ورجم الزاني الحصن أو جلده ، وجلد غير الحصن ، وجلد السكران . . قد تبدو قاسية عند النظرة الأولى وعند من لم يدرس فكرة هذا الدين الكلية وقواعده العامة جملة .

إن الإسلام لا يقيم هذه الحدود على مرتكبي تلك الجرائم إلا بعد أن لا يكون لهم عذر ما في ارتكابها ، ولا شبهة في وقوعها .

إنه يقطع يد السارق ، الذي لم يسرق اضطراراً ليطعم نفسه أو يطعم أهله ؛ فإذا كانت هنالك مبررات اجتماعية أو فردية تضطر إلى هذه الفعل فلا عقوبة ؛ بل ربما عاد بالعقوبة على من دفع الجرم إلى ارتكاب جريمته ! وهكذا فعل عمر مع غلمان سرقوا ناقة . فلما علم أنهم سرقوا لأن سيدهم لا يعطيهم الكفاية من الطعام ، أطلقهم وغرم السيد ثمن هذه الناقة ضعفين . ولما كان الجوع في عام الرمادة عطل حد السرقة .

وإنه يرمي الزانى الذى يضبطه الشهود فى حالة تلبس كامل أو مجلده، فى الوقت الذى لا يبيح لأحد أن يتسور على أحد داره أو يتجسس عليه . فالزانى الذى يضبطه الشهود إذن لا يرتكب هذه الفاحشة فى خفية ، بل فى مكان يستطيع الشهود أن يضبطوه فيه ، فهو إذن مجرم فاحش متبجح ، ينشر الفاحشة ويشيعها ؛ والله يكره هذا ويمقتنه « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

فأما الذين يرتكبون هذه الفاحشة متسترين ، ثم يعترفون طلباً للتكفير ، فالإسلام يرأف بهم رأفة شديدة ، ويحاول أن يتلمس لهم الشبهات ، كى يعفى هذه الضمائر المتحجرة المتظهرة من العقاب .

والذى يرجح أن هذه العقوبة مراعى فى تشديدها ، فكرة نشر الفاحشة ، أن عقوبة الجلد ، توقع على فريق آخر : فريق الذين يشيعون الفاحشة بنشر الإشاعات والأراجيف حول أعراض المؤمنات الطاهرات : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

كذلك الحال فى حد شارب الخمر . فهو يجلد إذا ضبط شارباً . فإذا كان فى خفية ، لم يره أحد ، فليس لأحد أن يتسور عليه بيته

أو يتجسس . فأما ذلك المستهتر الذى يجر بالمعصية ، فمن حق المجتمع أن يبق نفسه من نشر المثل السيء فى جوانبه ، ومن حقه إذن أن يعاقبه . فأما حين يستتر ولا يتبجح فذلك حسابه مع ضميره ومع خالقه . وتلك مسأله أخرى ، يقولها الإسلام بإيقاظ الضمير بالعقوبة .

ونستعير هنا رأياً للأستاذ محمد قطب سجله فى كتابه : « الإنسان بين المادية والإسلام » عن العقوبات الإسلامية ، خلاصته : أن الإسلام يمنع أولاً كل الأسباب التى تضطر الفرد إلى ارتكاب الجريمة ، ويعالجها علاج وقاية قبل وقوعها ، وبذلك لا يبقى لارتكابها عذر فى ارتكابها ، إلا متبجحاً مستهتراً مختاراً ، وحينئذ لا تكون العقوبة قاسية مهما بدت قاسية ، لأن الإسلام لا يتلمس الأسباب ولا يتر بص الدوائر ؛ بل يبق . فإذا لم تنفع الوقاية ، فالعلاج إذن ضرورى لا محالة <sup>(١)</sup> .

ذلك واضح . فأما الذين فى قلوبهم مرض ، فيعدون هذه الاحتياطات فى حدود الإسلام دلالة على عدم جديتها ! وهى جهالة تافهة ، تأخذ الأشياء من سطوحها فى عجلة مستهترة تنافى كرامة العلم ، ووقار البحث ، والجد الضرورى فى تناول مثل هذه الأمور .

... وبعد ! فليطمئن المخلصون من المفكرين ورجال الفنون ومن إليهم أن حكم الإسلام لن يسلمهم إلى المشاقق والسجون ! ولن يكبت أفكارهم ، ويحطم أعلامهم ، وينبذهم من حمايته ورعايته ؛ ولا يأخذوا

---

(٢) راجع فصل الجريمة والعقاب فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام »



الصيحات التافهة التي يصيحها اليوم رجال الدين المحترفون في وجه بعض السكتب وبعض الأفكار حجة !! فإنما هذه الصيحات تجارة رابحة اليوم ، وحرفة كاسية ، لأنهم يعيشون في عهد الإقطاع الذي يقيمهم حراساً لمظالمه وجرائمه ، ولكي يبرروا وجودهم في أعين الجماهير يطلقون هذه الصيحات الفارغة بين الحين والحين .

فأما حين يكون الحكم للإسلام ، فلن يبقى لهؤلاء عمل ، فسيكونون يومئذ مجندين لعمل منتج نافع ، هم بوقية المتعطلين المتسكعين من كبار الملاك ورجال الأموال ، ومن الموظفين والمستخدمين في الدواوين ، ومن أحلاس المقاهي والمواخير والحانات ، ومن المشردين في الشوارع والطرقات . أو المصطلين للشمس حول الأجران . . وكلهم في التبطل والتسكع سواء . بعضهم كاره مضطر ، وبعضهم كسول خامل ، وبعضهم مستغل مستهتر .

وحين تندفع الجموع في تيار العمل النشيط ؛ لن تكون هناك جرائم تقام عليها الحدود إلا في القليل النادر ، وفي حالات الشذوذ ، الذي لا بد منه في المجتمعات .

### نموض النصوص

بعض الأبرياء الجهلاء يصدق ما يشيعه المغرضون عن نموض النصوص في الشريعة الإسلامية ، لأن بعض هؤلاء المغرضين يتسمون باسم العلماء ؛ فتتسأ في نفوسهم شبهة في أن قبول النصوص للتأويل ،

سيحيلهم إلى عماية ومتاهة ، فلا يجدون أصول القانون الذى يحكمهم واضحة معروفة .

والجمل بهذا الدين هو الذى يبقى على مثل هذه الشبهة فى النفوس ؛ والتفسيرات والخواشى والشروح التى عكف عليها الأزهر فى وقت جموده ، والتى ما يزال يعيش عليها ، دون الرجوع إلى منابع الأولى الواضحة البسيطة ، يجعل للجهلاء بالدين عذراً . فأين هم وهذه المتاهة الواسعة فى الخواشى والشروح ؟ !

وثمة أصل آخر لهذه الشبهة لا يعرفه الأبرياء الجهلاء ، ولكن يتخذونه بعض المغرضين وسيلة للتخويف . . هو شمول المبادئ الإسلامية وسعة أصولها . وبدلاً من أن تكون هذه مزية تحمد ، فإنهم يجعلونها خطراً يخشى . .

إن الأصول الإسلامية ليست هى هذه الشروح والخواشى التى يتدارسها الأزهر ، ليقتل بها شباب طلابه ، ويأكل أعمارهم ، ليخرجوا منها بأقوال متعارضة ، وجدل عقيم . ولقد كتبت قبل اليوم كتاباً كاملاً عن « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » فى نحو ثلثمائة صفحة وكتاباً آخر عن « السلام العالمى والإسلام » فى نحو مئتين صفحة ، فلم أجد أننى بحاجة إلى الرجوع إلى شئ من كتب الخواشى ، لأن القنايع الأصلية فى الإسلام فى الكتاب والسنة والسيرة والتاريخ ، كانت كافية لى لإخراج هذين البحثين وإخراج سواهما مما سيجىء .

والمذاهب الأربعة الكبرى في الإسلام كان مصدر كل ما فيها من أحكام وتشريعات هو الكتاب والسنة . . . وهى مصادر ميسرة للكثيرين .

نعم قد تختلف الآراء فى الجزئيات والتطبيقات . ولكن كل نظرية تشريعية فى العالم تختلف حولها الشروح . ويتجادل فيها الفقهاء القانونيون . ثم لا يدعوا أحد إلى نبذ تلك النظريات التشريعية ، لأن الشراح لم يجمعوا فيها على تفسير .

فأما سعة المبادئ وعمومها ، فذلك فى غير الحدود ، أى فى الشؤون العامة المتجددة مع الحياة . كتقرير مبدأ الشورى فى الحكم ، وترك الطريقة التى تتم بها الشورى دون تحديد . كما ينص الدستور المصرى الحاضر على أن تكون الحكومة برلمانية ، ثم يترك طريقة الانتخاب لقانون الانتخاب . كتقرير مبدأ درء الحدود بالشبهات ، ثم ترك بيان الحالات التى يدرء فيها الحد عن المتهم ، يصوغها القانون الذى يفسر هذه القاعدة ، أو يحددها القاضى الذى يزاوّل النظر فى الحادثة . كتقرير مبدأ قتال الفئة الباغية من المتحاربين حتى تنفى إلى أمر الله ، وترك تحديد الحالات التى توصف بأنها حالات بفى للمحكمين فيها . وذلك ما تصنعه هيئة الأمم المتحدة اليوم فى تقرير أن حالة ما تعد اعتداء تدره بقية الأمم ، حتى ينفى المعتدى إلى أمر القانون الدولى !



إن الحلال بين والحرام بين. أما الذين يتعمدون التأويل لأغراض غير التي يعينها القانون ، فهم مستطيعون ذلك في كل وقت ، وفي ظل أى قانون . وها نحن أولاء نرى كل وزارة تلى الحكم تجدد للقانون تفسيراً وتأويلاً ، وترتكب في ظله مالم يخطر على بال واضعه . أيقال حينئذ إن هذه القوانين يجب أن تلغى ، لأن طاغية من الطغاة قد أولها تأويلاً سيئاً تقبله نصوصها أو لا تقبله ؟ فما بال القانون الإسلامى وحده هو الذى يتهم عندما يؤوله الطغاة تلك التأويلات ؟  
إنها شبهة ظالمة فى الواقع لا تنهض على أساس سليم .

### الحريم !!!

هنالك شبهة قوية لصقت بهذا الدين ، وهى بعيدة عن روحه وتعاليمه ، بعدها عن الواقع التاريخى فيه . . شبهة « الحريم » !  
إن « الحرم لك » و « السلام لك » لفظان تركيان ، يشيران إلى نشأة ذلك النظام فى العالم الإسلامى . وما أظن أحداً يتهم الأتراك بأنهم فهمة للإسلام ، ولا كانوا من الصحابة ولا التابعين !  
لقد كانت وثبة الإسلام بالمرأة وثبة ثورية بالقياس إلى العصر ؛ وما تزال إلى اليوم خطوة إنسانية كريمة ، لم ترد عليها الحضارة الغربية إلا حرية الاستهتار !

إن الكشيرات يخشين لو عاد الإسلام إلى الحكم أن يردهن

رقيقاً ، أو أن يجسهن في الحريم . وهي خشية لا أساس لها ، ولا يعرف الإسلام منشأها . والذي نعلمه ونؤكد أنه المرأة الفاضلة ليس لها أن تخشى من الإسلام وحكمه شيئاً ؛ فقد منحها الإسلام من الحرية الواسعة الكريمة ما هو حسب أى إنسان فاضل شريف للعمل المثمر في حياة المجتمع .

منحها حق الملك والسكسب بالطرق المشروعة ؛ ومنحها حرية تزويج نفسها ممن تشاء بلا ضغط ولا إرغام ؛ ومنحها حق الخروج والدخول في ثياب محتشمة ، لا تثير الشهوات ولا تجعلها نهماً للزوات . نعم . إنه منعهما أن تخرج للناس بثياب السهرة ! أو أن توزع النظرات الغزلة ، والضحكات الفاجرة . . فن كانت لا تعرف الحرية إلا هكذا ، فلتخش الإسلام وحكم الإسلام !

فأما الذين يتحسكون بحرية المرأة ، ليمتحسكوا بالمرأة ، من أصحاب الأقلام المائعة ؛ فأولئك يعرفون أهدافهم ؛ وتعرفها أوكار النساء التي ترحب بهم ، وتدعوهم إلى حفلاتها الداعرة ، التي يتجرد فيها الإنسان من كل مقومات الإنسانية ، ليرتد حيواناً في غابة ، وينقلب الجنسان ذكراً وأنثى . . وهذه الحفلات الداعرة لا يعرفها الإسلام .

لقد كان النساء في عهد محمد صاحب هذا الدين ، يذهبن

إلى المسجد للصلاة ، ويذهب إلى السوق للتجارة ، ويخرج في الغزوات لتشجيع الرجال . فإذا جاء عصر من عصور الظلم والاستبداد فأحال المرأة سبعة ، فقد أحال ذلك العصر نفسه الرجال إلى أرقاء .

إنه ليس الإسلام الذي كان يأمر السلاطين بالقاء الرجال في جب الحيات ؛ وكذلك لم يكن هو الذي يأمر الرجال بإلقاء النساء في « الحريم » إنما كان ذلك ظلماً شائعاً ذهب ضحيته الرجال والنساء سواء . كذلك ليست « الحرية » هي التي تكشف الأخاذ والنهود في الحفلات الساهرة اليوم . إنما هي الدعارة الروحية تنزياً بزى الأرسقراطية ، والعبودية للجسد تنزياً بزى الحرية .

فإذا جاء حكم الإسلام ، فسيرد للمرأة حريتها الكريمة التي تنقذها من الرجعية التي لانزال تسيطر في بعض الأوساط ؛ والتي تنقذها كذلك من الإباحية التي خرجت من وسط « الأرسقراطية » .

إنه سينقذ روح الإنسانية المهيمنة في « الحريم » وفي « الصالون » سواء . فهي في الأولى مهيمنة بالكبت والظلم ، وهي في الثانية مهيمنة بالرخص والابتذال .

إنه لاخوف من الإسلام على امرأة فاضلة تزاوّل نشاطها الإنساني في حدود الشرف والكرامة . فأما اللواتي لايسعهن هذا المجال ، فلمن أن يخشين كل الخشية من حكم الإسلام<sup>(١)</sup> .

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع في كتاب « السلام العالمي والإسلام »

( فصل : سلام البيت )



## التعصب ضد الأقليات

بقيت شبهة أخيرة ، أنا أكره الحديث فيها ، ولكن بعضهم يشير إليها تصريحاً أو تلميحاً ، وبعضهم يتخذها تكأة وسبباً لإرضاء غايات صغيرة ، وتحقيق مغانع بسيرة . . تلك هي مسألة الأقليات في حكم الإسلام ، وقومية الحكم في ظل إسلامية التشريع .

إننى أحسب مجرد التخوف من حكم الإسلام على الأقليات القومية في بلاده نوعاً من التجنى الذى لا يليق ؛ فما من دين في العالم وما من حكم في الدنيا ، ضمن لهذه الأقليات حرياتهم وكراماتهم وحقوقها القومية ، كما صنع الإسلام في تاريخه الطويل . بل ما من حكم دلت الأقليات فيه كما دلت الإسلام من تقهم أرضه من أقليات . لا الأقليات القومية التى تشارك شعوبه فى الجنس واللغة والوطن ، بل الأقليات الأجنبية عنه وعن قومه .

وما كان جزاء الإسلام على عدله وحسن رعايته ، إلا اضطهاد أتباعه فى بلاد الأديان الأخرى ، وفى ظل جميع أنواع الحكم ماعداه فى القديم وفى الحديث سواء مما يجعل الحديث عن قومية الحكم لإسلاميته ، حديثاً بغيضاً ، لاسند له من الحق ولا من الواقع ولا من التاريخ ، ولا من روح الإنصاف التى يجب أن يتحلى بها المواطنون فى كل بلاد الإسلام .

وسأختار هنا عهداً من عهود الإسلام كان ينتظر أن يكون أشد  
العهود تعصباً وقسوة وفضاظة . إذ أنه كان في العهود المظلمة ، وكان  
القائمون عليه هم الأتراك . وسأدع كاتباً مسيحياً أوربياً يتحدث عنه في  
معاملته للأقليات غير المسلمة وللبلاذ المفتوحة . وسأكتفي بهذا المثال  
دون سواء ، لأنه يبلغ فصل الخطاب في هذا المقام .

قال « سيرت . و . أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام »  
ترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى  
ص ١٣٨ — ص ١٣٩ .

« إن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرايا المسيحيين —  
على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين — لتدل على تسامح لم  
يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفاً في سائر أوربا : وإن أصحاب كلفن  
Calvin في المجر وترنسلفانيا ، وأصحاب مذهب التوحيد Unitarians  
من المسيحيين الذين كانوا في ترنسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للأتراك  
على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة ، ونظر البروتستانت في  
سيلييزيا إلى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية  
بالخضوع للحكم الإسلامى . وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون  
المضطهدون في جموع هائلة ، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا . كذلك  
نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء  
Old Believers الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية ، قد وجدوا

من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية.  
 وربما يحق لمقاريوس بطريق إنطاكية في القرن السابع عشر أن يهنيء  
 نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيمة التي أوقعها البولنديون من  
 الكاثوليك Catholic Poles على روسي الكنيسة الشرقية  
 الأرثوذكسية ، قال مقاريوس : « إننا جميعاً قد ذرفنا دمعاً غزيراً على آلاف  
 الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك  
 الأشرار الزنادقة أعداء الدين . وربما كان عدد القتلى سبعين ألفاً أو ثمانين  
 ألفاً . فيا أيها الخونة ! يا مردة الرجس ! يأتيتها القلوب المتحجرة ! ماذا  
 صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال  
 الصغار حتى تقتلوه ؟ ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أظهروا  
 أنفسهم أشد انحطاطاً وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين ، وذلك  
 بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين ؛ وهم يظنون بذلك أنهم  
 يحسون اسم الأرثوذكس . أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد . »  
 فإذا لقي المسامون في مثل ذلك الزمان ؛ بل ماذا يلقون حتى الآن ؟  
 إن الجرائم الوحشية ترتكب ضدهم في الحبشة جارتنا ، وفي الملايو تحت  
 الحكم الانجليزي<sup>(١)</sup> وفي روسيا ويوغوسلافيا وسائر البلاد الشيوعية

(١) وأقرب الحوادث إلى الأذهان حادث الفتاة الهولندية التي التقطتها سيدة  
 مسالمة وهي طفلة شاردة فرعتها وربتها ، فنشأت مسالمة وتزوجت من مسلم .  
 وإذا بالدولة الانجليزية تجند جيشها لرد هذه الفتاة إلى المسيحية ، وضرب مسالمة =



التي يزعم المروجون لها هنا، والمستغفلون من إخواننا أن لا علاقة لها بالأديان، ولا عصبية فيها ضد الإسلام. وفي الهند التي هددنا سفيرها في مصر، لأن سفيرنا بالباكستان قد نسبت إليه كلمة حق عن كشمير. لا بل إن هذه الجرائم الوحشية لتركب ضدهم في عقر دارهم، في الشمال الأفريقي على يد فرنسا، وفي جنوب السودان على يد إنجلترا، وفي كل مكان يضع فيه الاستعمار قدمه حتى الآن !

إن كل ما يدكرونه ضد حكم الإسلام هو أصداء لبعض المذابح الأرمنية على أيدي الترك المتأخرين. ولكن هذه المذابح لم تسكن وليدة تعصب ديني، بل كانت ذات طابع سياسي. فهذه العناصر كانت شوكة تستخدم دائماً لوخر الدولة العثمانية في إبان ضعفها، وتحركها روسيا أو أوربا لأسباب سياسية، ناشئة عن روح صليبية، على أن ما وقع الأرمن المسيحيين وقع مثله للعرب المسلمين في سورية، في ظروف سياسية مشابهة. وقد قامت بهذه وتلك أذل العناصر في الدولة العثمانية، تلك العناصر التي هي بطبيعتها شغوفة بالدماء والقسوة والإجرام؛ واستوى المسلمون وغير المسلمين في تلقى ويلاتها وآثامها في طول البلاد. وما كان هؤلاء فهمة للإسلام ولا لغير الإسلام !

---

= سنغافورة بالمدافع الرشاشة ! إنها تدل على التسامح الديني الكامل ! التسامح الانجليزي والهولندي بطبيعة الحال !

إن الحكم حين يصير إلى الإسلام ، سيسير على مبادئه السمحة  
الكريمة ، التي لا يملك إنكارها أحد . ولن يتغير على الأقليات شيء  
في أوضاعها ولا حقوقها التي تتمتع بها الآن .

وعلى الذين يتحدثون في هذا الموضوع أن يذكروا أن الولايات  
المتحدة الأمريكية التسع والأربعين ، ليس فيها حاكم كاثوليكي واحد ،  
لمجرد أن الأغلبية هناك من البروتستانت . وكلاهما مسيحي ، لا يختلف  
عن صاحبه إلا في المذهب .

وعليهم أن يذكروا أن اضطهاد المسلمين في الحبشة قد بلغ إلى  
حد استرقاق المدين المسلم الذي لا يوفى بدينه للمسيحي . لمجرد أن الحكم  
للمسيحيين . ولو أن الأغلبية العديدة هناك للمسلمين !

ما الذي يمكن أن يفتح به فمه إنسان عن حكم الإسلام من ناحية  
الأقليات ؟ إن الحياء وحده يكفي ، وإنني لأكره الحديث في هذا  
الموضوع ، فكل حديث فيه هو نوع من التجنى القبيح لا يليق !

## عداوات حول حكم الإسلام

لقد تحدثنا منذ لحظة إلى الأبرياء ، الذين تقيم الشبهات في نفوسهم حول حكم الإسلام ، فيتخوفون منه ويقلقون ؛ لا لأنهم يكرهونه ، ولكن لأنهم يجهلونه ؛ ولقد كان من حقهم علينا أن نجلوهم هذه الشبهات ، وأن نرفع عن عيونهم هذه الغشاوات ، وأن نجادلهم بالتي هي أحسن ، بوصفهم مجنئاً عليهم بجهل هذا الدين لاجنائة !

إن هؤلاء إلا فريسة فريق آخر أو فرق أخرى ، ليست في مثل براءتهم ، وليست في مثل غفلتهم ! إنما تأكيد للإسلام كيداً عن وعي وعن قصد ، وتصوره للأبرياء الجاهلين هذا التصوير البشع الخفيف لغاية ولغرض . ومن حق أولئك الأبرياء الغافلين أن نكشف لهم هؤلاء الخبيثاء الماكرين ؛ وأن نطلعهم على ما خلف الستار من المكر السيء والغرض الدفين .

إن لحكم الإسلام أعداء كثيرين في الخارج وفي الداخل ؛ فيهم الدهاة الأقوياء ، وفيهم المهازيل والمهاييل . غير أنهم يلتقون عند مصالح لهم مشتركة في إقصاء الإسلام عن الحكم في الحياة ؛ وهم يعارضون في رد الحكم إلى الإسلام بحجة شتى ، وبمنطق مختلف ، وبنبرات ولحون متباينة يتألف منها جميعاً دوى يخيل لمن يسمعه ، وهو لا يعرف مصادره



أن هنالك شيئاً ، وأن وراءه حقاً ! فلننظر إذن في شأن تلك العداوات .

### عداوات الصليبيين

لقد انتهت المسيحية في أوربا وأمريكا إلى أن تصبح راية قومية تتجمع تحتها جموعهم ، لا عقيدة دينية — كما هي طبيعة المسيحية — وهم إذ يتنادون اليوم باسم حماية الحضارة المسيحية من هجوم الشيوعية عليها كما كانوا يتنادون أيام الفاشية والنازية ، لا يقصدون العقيدة المسيحية كديانة ، بل يقصدون الأمم المسيحية كأوطان وقوميات . والمسيحية ليست إلا ستاراً يتخذونه لاستجاشة حمية البلاد المسيحية جميعاً ؛ وهذا ما يفسر الانحلال الخلقى والاجتماعى الذى يتزايد فى محيط البلاد المسيحية — منافياً لكل تعاليم المسيحية — فى الوقت الذى ترتفع فيه الدعوة باسم الحضارة المسيحية !

وبهذا الوضع للمسألة لا تبدو هنالك غرابة فى الجمع بين التحلل من روح المسيحية فى أوربا وأمريكا ، والخصومة والعداء لغير المسيحيين فى البلاد الأخرى ! إنه لا غرابة ولا لغز يحير الأفهام ، ولكنها اللعبة الماهرة مع المغفلين والسذج من أهل الديانات الأخرى ، وبخاصة أهل الإسلام . . إن الغرب يوحى لهؤلاء الغافلين ، أن الدين عامل ثانوى لا قيمة له فى حياتهم ، مستشهدين بتحللهم من قيوده فى مجتمعاتهم ؛ فيفقد أصحابنا بهذه الدعوة ، ويسرون عليها ، ويخربون بيوتهم بأيديهم

لا بأذى أعدائهم الدهاة . ذلك بينما العالم الغربي كله ينصب للإسلام ،  
ويكن له العداوة والبغضاء !

إن الحروب الصليبية لم تضع أوزارها إلا في نفوس المسلمين وفي  
عالم المسلمين ؛ فأما في العالم المسيحي فهي مشبوبة الأوار ؛ وهي تشغل  
من أذهان القوم وسياستهم مكاناً بارزاً ، يبدو في شتى مناحي الحياة .  
ونحن بغفلة منقطعة النظر تقدم لهم العون والمساعدة في هذه الحرب  
المشبوبة الأوار .

إن الصليبيين الأحياء لم ينسوا يوماً أن بيت المقدس هو البقعة التي  
ثارت من أجلها الحروب الصليبية ، وحينما دخل الماريشال « ألنبي »  
بيت المقدس في الحرب العظمى الماضية تحرك لسان الصليبية الكامنة  
في دمه وفي دم كل صليبي . تحرك لينفت أوار الصليبية الكامنة :  
« الآن انتهت الحروب الصليبية » !

و حين قضت السياسة الاستعمارية والواقع المادي أن تكون  
فلسطين للعرب — أهلها وسكانها — تحركت هذه الصليبية مرة أخرى  
بفكرة الوطن القومي لليهود ؛ ثم انتهت إلى المأساة الأخيرة على عين  
انجلترا وأمريكا وبصرهما ، وبأسلحتهما وأموالهما — تشاركتهما  
الشيوعية التي تطرد الدين من حسابها ، إلا أن يكون هذا الدين هو  
الإسلام ، فهي تحارب به باسمها لا باسم الصليبية ، تحارب به لحسابها الخاص

ولصلحتها الخاصة كما سيأتى — وقال المغفلون هنا : إن الدسائس الاستعمارية والمصالح الشخصية وحدها هى التى تحرك إنجلترا وأمريكا . ذلك أنهم لا يفتنون إلى أن روح الصليبية كامن وراء السياسة الاستعمارية كذلك ، يذكى العوامل الظاهرة ويقوّيها .

وقد بقى بيت المقدس القديم وحده فى أيد عربية — هى على كل حال مسلمة ! وهنا يحىء دور هيئة الأمم ، لترد هذه البقعة إلى حكم الصليبيين مرة أخرى ! لا باسم الصليبية سافراً ، ولكن باسم « التدويل » وتجند من صراع الأقزام الدائر بين الدويلات العربية ، بل بين البيوت المالكة وحدها فى هذه الدويلات ، مشجعاً وناصرأ . وتجند من سياسة الأقزام فى هذه الدويلات البائسة ، من يعد ذلك سياسة قومية مرسومة ! إن الصليبيين يعرفون ويقول الصرخاء منهم — وقد سمعته فى أمريكا بأذنى — إن الإسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم . فهم لا يحشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية ، إذ أنها جميعاً ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها ؛ وهى فى الوقت ذاته أقل من المسيحية رقيأ . فأما الإسلام فهو — كما يسمونه — دين متحرك زاحف . وهو يمتد بنفسه وبلا أية قوة مساعدة . وهذا هو وجه الخطر فيه فى نظرهم جميعا . ولهذا يجب أن يحترسوا منه ، وأن يقاوموه ويكافوه .

ونحن الغافلين فى الشرق لا ندرك ضخامة الجهود التبشيرية التى



تبذلها أوربا وأمريكا لنشر المسيحية في أرجاء العالم كله ؛ في مجاهله ومعمره سواء لا ندرك أن للكنيسة الكاثوليكية وحدها نحو أربعة آلاف بعثة تبشيرية ، تنتشر في أنحاء الأرض ؛ وتذهب إلى مجاهل الكونغو والتبت ووراءها الأموال الضخمة التي لا تنفد .

وهذه الجهود لا يقوم بها المبعوثون وحدهم ، بل تعتمد كل الاعتماد على الوطنيين في البلاد الأخرى ؛ وتتخذ لها طرقاً وعنوانات شتى ؛ وتتزيا بأزياء كثيرة ليس الزى الدينى إلا واحداً منها . ففي مصر مثلاً يعد رجل كجورجى زيدان منشئ دار الهلال ، ورجل كسلامة موسى الكاتب الصحفي ، رسولين مهمين للتبشيرية ؛ يجدان في غفلة المصريين والشرقيين — بما في ذلك أصحاب الصحف والقراء — مجالا طيباً للعمل ، الذى لا تنهض به جمعيات تبشيرية كاملة . باسم الثقافة والأدب والصحافة !

والحكومات تشجع هذه البعثات وتؤيدها ، لأنها ترى من وراء المسيحية إلى أهداف سياسية واقتصادية ؛ وتعد المسيحية علماً قومياً ينتشر ظله في هذه الأصقاع كما أسلفنا .

والدين الوحيد الذى يقف في وجه هذه الجهود ، هو الإسلام وحده كما تقول تقريراتهم ، وكما يفصح أحياناً بعض الصرخاء منهم ! وهؤلاء الصليبيون يعرفون أن الإسلام ليس شيئاً آخر غير حكم

الإسلام ، فهو لا يستطيع أن يتحقق كاملاً وقوياً في هذه الأرض بغير هذا الحكم ، الذى يحول العقيدة شريعة ، ثم يقف ليحميها ويدفع عنها . لذلك يحاربون رجعة الحكم إلى الإسلام محاربة قوية لا هوادة فيها . يحاربونها بنفوذهم وبقوتهم ، كما يحاربونها بوساطة المفسلين منا ، وذوى المصالح الذين يخشون حكم الإسلام عليها .

وعلى حين تنسكب أوربا وأمريكا على الإسلام أن يحكم في أية بقعة من بقاع الأرض ، وأن تقوم على أساسه دولة تحمل لواءه ، وتعمل بفكرته ، وتنفذ قوانينه . وعلى حين ينقض الناعقون هنا وهناك في الأفطار الإسلامية ممن استعمرت أوربا وأمريكا أرواحهم . . بأن الزمن قد مضى فلم يعد يحتمل قيام دولة على أساس الدين . .

على حين هذا وذاك تنبت كالشوكة دولة إسرائيل ! تتركز على الدين — وعلى الدين وحده — فاليهودية ليست جنسية بل ديانة . تضم الروسى والألمانى والبولندى والأمريكى والمصرى واليمنى . . . وكل من هب ودب على وجه هذه الأرض من الأجناس . وعلى اليهودية وحدها تتركز إسرائيل بتشجيع إنجلترا ، وتمويل أمريكا . فأما روسيا الشيوعية فلنضع حديثها في هذه المسألة على جنب ! فإن نكسرها على الدين أشد ، وإنكارها لقيام دولة على الدين أعنف . ولكن هذا كله يتبخر وتتبخر معه مبادئ الشيوعية الأساسية ، عند ما يطل وجه المصلحة الشخصية !

وما يلقاه الحكم الإسلامي من عنت الصليبية في مصر تجد منه  
« الباكستان » اليوم ما تجد في قضية كشمير مع الهند والمغفلون هنا  
لا يفطنون إلى أنها الروح الصليبية التي تملئ على هذه الدول المسيحية  
سياستها ، فيحاولون أن يردوها إلى أسباب أخرى !

إن أجهزة الدعاية الأمريكية في الشرق هي التي تقول الدعاية  
للهند ؛ بأموال أمريكية يظهر صداها في صحافة الشرق واضحاً ! لماذا ؟  
لأن الهند ليست مسلمة ، ولأن بينها وبين أول دولة مسلمة في الشرق  
نزاعاً . والكثرة من الحاكمن في الدولة الأمريكية تخرجوا في المعاهد  
التبشيرية . وهي حقيقة أفضى إلى بها أحد الأساتذة الإنجليز الذين  
التقيت بهم في أمريكا ، وعدّ لي عشرات من الأسماء البارزة في وزارة  
الخارجية الأمريكية وفي السلك السياسي — ولم يكن يفضي إلى بهذه  
الحقيقة بريئاً لوجه الله ! وإنما هو — كما عرفت فيما بعد — أحد رجال  
قلم المخابرات البريطاني الذين يهمهم ألا يثق الشرقيون كثيراً في نيات  
أمريكا ! مما دعاني إلى التشكك في بياناته لي فتحققتها بوسائل أخرى .  
إن الإسلام لا يجوز أن يحكم . . هذه رغبة العالم الصليبي . وعلينا  
نحن أن نذعن . وأن نصدق ما يوحى إلينا به الصليبيون في الشرق  
والغرب ، في سذاجة وغفلة ، باسم التحرر والثقافة !

ألا من الأقزام ، بمن يقنعهم أنهم ليسوا بعد إلا الأقزام ! ؟



## عداوات المستعمرين

يصعب الفصل بين عدااء الصليبية للإسلام وعداء الاستعمار . فكلهما يغذى الآخر ويسنده ويبرره . والإسلام عقيدة استعلاء تكافح الاستعمار حين تستيقظ في نفوس أصحابها ؛ ورجعة الحكم إلى الإسلام توقف هذه الروح بشدة ، فتفسد على الاستعمار خطة الاستغلال والاستذلال .

إن الإسلام يحرم على أتباعه أن يخضعوا لأى حكم أجنبي ، بل لأى تشريع لا يتفق مع شريعة الإسلام . وتلك عقبة في طريق الاستعمار كؤود . والمستعمرون ليسوا في غفلة متفقينا الفضلاء ، ولا في بلاهة حكامنا الفابغين ! إنهم يقيمون استعمارهم على دراسات كاملة متشعبة لكل مقومات الشعوب التى يستعمرونها ؛ كي يقولوا بذور المقاومة ، أو يتفادوها أو يداروها . وقد قام الاستشراق على هذا الأساس . قام ليساعد الاستعمار من الوجهة العلمية ؛ ولמיד جذوره في التربة العقلية كذلك . ولكننا نحن هنا نعبد المستشرقين ببلاهة ؛ ونعتقد في سذاجة أنهم رهبان العلم والمعرفة ، وأنهم بعدوا عن نشأتهم الأولى ، وقطعوا صلّتهم بالعلة التى نشأوا منها ! وبخاصة إذا موّه علينا بعضهم بكلمة طيبة تقال عن ديننا وعن نبينا ، كي تكون هى الطعم لتستنمى أفكارنا إلى الإيحاء فى ناحية أخرى !

واب الإنسان ليضحك أحياناً — ولو أنه ضحك مر —  
و « المثقفون ! » فيما يتعاملون بالحديث عن « الإخلاص العلمى »  
للمستشرقين . فإذا خطر لك أن تتشكك في براءة هؤلاء القديسين ،  
فأنت إذن غير مثقف ! أو متعصب تحشر الدين في كل مجال !  
ومرة أخرى نسأل : ألا من للأفزام بمن يقنعهم أنهم ليسوا بعد  
إلا الأفزام ؟

ولقد كان الإنجليز يعرفون أن جيوش الاحتلال ستترك مصر  
يوماً ما ، إن قريباً وإن بعيداً . فلم يكن لهم بد من أسناد للاستعمار غير  
جيوش الاحتلال . فأقاموا هذه الأسناد في الميدان الاقتصادى لاحتلال  
الأسواق المصرية ، ومحاولة إغلاق الأسواق العالمية الأخرى في وجه  
الحاصلات المصرية ؛ وأقاموها في دنيا المال بتبعية نقدنا لنقدم  
أو نخزانتهم . . . الخ .

ولكن هذه الأسناد كلها لم تكن لتقوى على البقاء ، لولا الاستعمار  
الروحى والفكرى الذى عنى به الاستعمار فى خلال القرن الماضى ، وما يزال  
يوليه أكبر عناية فى هذه الأيام . لقد ذهب الإنجليز البيض من الدواوين  
ليحل محلهم « الإنجليز السمر » من المصريين المقربين ، المستعمرة أرواحهم  
وأفكارهم ، المصنوعين على عين الاستعمار ، لأداء أغراض الاستعمار . .  
وكانت عناية الإنجليز البيض شديدة بوزارة المعارف بوصفها المشرفة

على تكوين الأجيال ؛ حتى إذا تركوها اليوم للإنجليز السمر تركوها مطمئنين ، فما تزال النظم والبرامج والسكتب وطرائق التدريس كلها تعمل للاستعمار الروحي والفسكري في نفوس الأجيال . وكلها إيماءات بنبذ العنصر الديني ! وبقضاء الإسلام لا عن الحكم وحده بل عن الحياة جميعاً .

لقد ربي الاحتلال أجيالاً متعاقبة ، ما تزال تتكاثر بحكم العقلية المشرفة على وزارة المعارف ، تنظر إلى الإسلام على أنه بقية من بقايا التأخر والانحطاط ؛ وتعد التجرد منه تجرداً من تهمة الجود والجهل ، ودليلاً على « الثقافة ! » والتحرر .

وبرامج التاريخ في المدرسة المصرية وكتبه على وجه خاص من أمكر ما يستطيع الاستعمار أن يصنع ، ومن أفكك ما يقتل الروح القومية والروح الدينية سواء ، فالطالب الثانوى — بل الجامعى — يخرج من دراسة التاريخ — بما فى ذلك التاريخ الإسلامى — لا يعرف شيئاً عن فكرة الإسلام الاجتماعية ، ونظراته الإنسانية ، وكل ما يدرسه غزوات وحروب ، ووقائع وأحداث . ينتهى منها إلى أن الإسلام كان معركة حربية ، ولم يكن يوماً ما معركة فكرية ولا اجتماعية ولا إنسانية ! وساعد الاستعمار على تشويه الفكرة الإسلامية كلها عامل آخر . عامل لم يكن الاستعمار ليجد أفكك منه ولا أفعل فى تشويه الإسلام .



أولئك الذين اصطلح الناس على أن يسموهم رجال دين ، من الأشياء والدراويش ؛ يمشون جهود الفكر ، وضيق الأفق ، أو يمشون الخرافة والجهالة ، ثم يصبغون ذلك كله بصبغة الدين ؛ فيظهرونه بشعاً شامها منفراً . ثم يرتكبون في سلوكهم الشخصى والاجتماعى جرائم وموبقات شائنة ؛ فيذهبون بكرامة الدين وجديته واحترامه ؛ وبخاصة حين يشترتون بآيات الله ثمناً قليلاً ، فيناصرون الاستغلال والطفيان ، باسم الإسلام ، وباسم القرآن !

وبذلك تعاون التعليم الاستعمارى القائم فى وزارة المعارف بإشراف مصنوعات الاحتلال المشرفة على البرامج والنظم والمناهج والكتب ؛ مع رجال الدين المزعومين ، على أن يبلغ الاحتلال غايته ، وأن يبلغ الاستعمار الروحى والفكرى ذروته ، حتى بعد ذهاب الاحتلال ! وفى عناية الإنجليز بوزارة المعارف نضرب مثلاً قريباً حاضراً قد لا يلتفت إليه الكثيرون .

لقد كان الإنجليز يعرفون أن فى مصر رجلاً اسمه الدكتور طه حسين . وكان الدكتور طه هو الدكتور طه السكاتب الأديب الأستاذ الجامعى كاهو . لم يزد عليه إلا أن أصبح يوماً وزيراً للمعارف . وكان الإنجليز يعرفون أن ميول الرجل — حسب ثقافته —

ميول فرنسية . فلما أن صارت إليه وزارة المعارف ، أدركوا أن هنالك خطراً على الثقافة الإنجليزية قد يصيبها مع وجود هذا الوزير .

وهنا فقط تذكروا أن طه حسين أديب كبير ، يستحق الدعوة إلى إنجلترا ، والضيافة على الحكومة البريطانية ، والمعهد البريطاني ؛ والتكريم بالألقاب الجامعية من جامعات الإنجليز . فقط عندما صار وزيراً للمعارف !

إنه الاستعمار يخشى على حباله في وزارة المعارف أن تنكشف أو أن تتزعزع !

والاستعمار يقوم في وجه الحكم الإسلامي ، لغرض معلوم ومفهوم ؛ وهو منطقي مع نفسه ؛ فما يعقل وهو يحارب الإسلام عقيدة مستكنة ، أن يدع هذه العقيدة تستحيل شريعة ، ويدع قوتها الروحية تستحيل قوة مادية . والمستعمرون لا يجهلون جهالتنا ، ولا يفعلون غفلتنا عن دعوة القرآن القوية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولا يغيب عن أذهانهم أن الحكم الإسلامي سيرد جهاز الدولة كله إسلامياً : جهازها الاقتصادي والحربي والتعليمي ، كما سيصوغ المجتمع صياغة إسلامية ، وليس أخطر من ذلك كله على الاستعمار الظاهر والخفي سواء .

كذلك يدرك الاستعمار أن قيام حكم إسلامي سيرد الدولة إلى

عدالة في الحكم وعدالة في المال . فيقلم أظفار دكتاتورية الحكم واستبداد المال . والاستعمار يهيمه دائماً أن لا تحكم الشعوب نفسها ، لأنه يعز عليه حينئذ إخضاعها ؛ فلا بد من طبقة دكتاتورية حاكمة ، تملك سلطات استبدادية ، وتملك ثروة قوية ؛ هذه الطبقة هي التي يستطيع الاستعمار أن يتعامل معها ، لأنها أولاً قليلة العدد ، ولأنها ثانياً تستعين به على البقاء ، وتحتاج إليه ليسندها في وجه الجماهير . وهذه الطبقة تتولى إخضاع الجماهير وسياستها ، ويتوارى خلفها الاستعمار ، فلا يبرز دائماً بوجهه السافر المثير إن هنالك حلقاً طبيعياً بين الاستعمار ودكتاتورية الحكم والمال ، كلاهما يعتمد على الآخر ، ويتبادل معه المصلحة . وكل ما يتمتع به المستعمرون في بلادهم من حرية وعدالة اجتماعية ، لا يسمحون بأن تستمتع به المستعمرات ومناطق النفوذ . لأن هذه المستعمرات ستواجههم وجهاً لوجه يوم تتخلص من مظالمها الاجتماعية . وكذلك المستغلون في الداخل لا يسمحون بإنهاء مشكلات الاستعمار ، لأن الجماهير ستواجههم وجهاً لوجه يوم تتخلص من الاستعمار !

ولما كان الحكم الإسلامي الصحيح ، مظنة أن يحقق للشعوب عدالة مطلقة في الحكم وفي المال ؛ فإن الاستعمار يحاربه حرماً شعواء . يحاربه سافراً بنفسه ، ويحاربه متسترأ وراء الأستار : أسفار الطغاة والمستغلين ؛ وأستار « المتحررين المثقفين ! » وأستار المشرفين على التعليم من حيث يشعرون أولاً يشعرون !



لقد يسمح الاستعمار بقيام حكم إسلامي زائف ، في بقاع جاهلة  
من الأرض متأخرة ، وفي ظل دكتاتوريات ظالمة مستغلة ، كي يكون  
نموذجاً سيئاً منفراً من حكم الإسلام ، بل من ذات الإسلام !

هنا ينعق الناعقون من المغفلين والمغرضين ، والأقزام الذين يريدون  
أن يبدوا شيئاً مذكوراً . انظروا ها هو ذا حكم الإسلام ! أفما ترونه  
مستبداً ظالماً غاشماً ، مستهتراً شهوانياً فاجراً ، متأخراً منحطاً جامداً . .  
هذا هو النموذج الحى لحكم الإسلام ؛ وهو النموذج الدائم لكل حكم  
دينى على ظهر الأرض كائناً ما كان !

ويفرك الأقزام أيديهم من الفرح ، والجاهير البلهاء تتحلق حولهم  
بسذاجة ، والمستغلون يضحكون من الأقزام والجاهير ، ويطمئنون إلى  
أن حكم الإسلام عنهم بعيد . والمستعمرون يضحكون من هؤلاء وهؤلاء  
جميعاً . وهم يتصايحون كلهم داخل المصيدة ، ويتصارعون كما تتصارع  
الفئران الهزيلة البائسة فى مصيدة الفئران !

### عداوات المستغلين والطفافة

سلفت الإشارة إلى ما بين حكم الإسلام وبين المستغلين والطفافة  
من صدام ، إلا أن يكون الإسلام ستاراً وهمياً ، لا حقيقة وأقمة .  
ولكن الطغاة والمستغلين لا يطمئنون أبداً إلى دوام الغفلة من الجاهير ؛  
ولا يأمنون أن تستيقظ وهى فى ظل حكم إسلامي . فتطالب بحقيقته

لا تشوره ؛ ويصبح في يدها يومئذ سلاح قوى ؛ وحجة يصعب تفنيدها ،  
ومنبه كان يستخدم من قبل في التخدير !

وإن المستغلين والطغاة ليعرفون جيداً أن الجماهير تصعب قيادتها  
وتسخيرها ضد عقيدتها الدينية ؛ فهم يرخصون لها بقشور هذه العقيدة  
وبخرافاتها ، فأما أن تصبح حقيقة وجداً ، فدون هذا وتنحرك الرغبة  
في الدفاع عن النفس والدفاع عن المصلحة ؛ وهما في واد والحكم  
الإسلامي في واد .

إنه لا ضير من الإسلام حين يكون متممة بالشفاء وطققة بحبات  
المساج ، أو أدعية وترانيل ، أو محلا يطف به سبعاً ، ويسلم مقود الجمل  
الذى يحمله رسمياً أو مولداً تطلق فيه « السواريح » أو مشيخة طرق  
أو نقابة أشرف تخلع فيها الخلع وتمنح فيها الألقاب . . إلى آخر أجهزة  
التخدير التى يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهو بها الجماهير . فأما حين  
يصبح حكماً جاداً ينفذ شرائع الإسلام فى الحكم والمال ؛ ويمنح الحقوق  
الإنسانية والاجتماعية والقانونية لكل فرد وكل جماعة ؛ ولا يفرق بين  
الشعائر التعبدية والشرائع القانونية . . فدون هذا ويصبح الإسلام  
خطراً يتقى ، وكارثة تدفع ؛ ومعركة يخوضها الطغاة والمستغلون بكل  
ما يملكون !

وحينئذ يخلو الاستعمار إلى الاستغلال ؛ ويخلو الاستغلال إلى

الاستعمار ؛ وتتلاقى مصلحتهما المشتركة في دفع هذا الخطر ، ورد هذا الأذى ، والوقوف في وجه الطوفان ، الذي لو اندفع لأغرق هؤلاء هؤلاء !

وحينئذ يستهين هؤلاء وهؤلاء حتى بخطر الشيوعية ، الذي لا يقاومه شيء كما تقاومه العدالة الإسلامية . لأن الشيوعية خارج الأبواب ، تمكن مدافعتها بالقوة وبالمغالطة . والإسلام داخل الأبواب ، ومعه حجته التي تصعب فيها المغالطة والالتواء !

إن الإسلام الذي يشير في نفس الفرد العزة والكرامة ؛ ويمنعه الخضوع لحكم يخالف شريعته ؛ ويمنحه الاعتداد والاستعلاء أمام كل سلطة وكل جبروت . . . هذا الإسلام لا يوافق السلطات الاستبدادية في الحكم ، ولا يضمن معه المستبدون البقاء .

وإن الإسلام الذي يضع في يد الدولة تلك السلطات الواسعة ، لتحدد الملكيات والثروات ؛ ولتأخذ منها ما يلزم لإصلاح المجتمع وتدفع مالا يضر ؛ ولتتحكم في إيجارات العقار ، وفي نسب الأجور ؛ ولتؤم المرافق العامة ، وتمنع الاحتكار ؛ ولتحرّم الربا والربح الفاحش والاستغلال . . . هذا الإسلام لا يوافق الطبقات المستغلة ، ولا يضمن معه المستغلون البقاء .

وعندئذ لا يسلط المستبدون والمستغلون على دعوة الإسلام الحديـد



والنار فحسب ، بل يسلطون عليها رجال الدين المحترفين ، والكتاب  
المأجورين ، والصحافة الهازلة ، تتخذ منها غرضاً للتهميم ، وموضوعاً  
للسخرية ، ويجد فيها التافهون من فتيان الصحافة في مصر مادة للتسلية  
تتفق مع تفاهة تفكيرهم ، وضحالة ثقافتهم ، وضآلة شأنهم في أية حياة  
أخرى جادة كريمة ، كالحياة الدافقة في ظل الإسلام .

والعجيب أن جماعة من المفكرين الجادين ، ينساقون كذلك  
مع التيار ؛ ويؤمنون بذلك الإيحاء الذي تسلطه الرأسمالية على دعوة  
الإسلام ، فيتصورون أن الحكم الإسلامي سينالهم بالأذى ، ويشفقون  
منه على حرية الفكر ، كما تخوفهم أبواق المستغلين والطفعاة !

إن حكم الإسلام لن يمس تفكيراً مستقيماً بسوء ، ولن يمس وضعاً  
مستقيماً بأذى . ولكنه حرب على الأوضاع الظالمة ، والسلطات الفاشية ،  
ومادة قاتلة للتفكير الأعوج والهذر السخيف ، لا بقوة الحديد والنار على  
طريقة حكم الاستبداد ، ولكن بالجدل الحسن ، وبدفعة الحياة الجادة  
التي لا تسمح بالهذر الفارغ ، ولا تجد المتبطلين الذين يستمعون إلى هذا  
الهذر في جد الحياة .

### عداوات المحترفين من رجال الدين

لعل أغرب العداوات لحكم الإسلام هي عداوة المحترفين من رجال  
الدين ، المحترفين على اختلاف مللهم ونحلهم وفرقهم وطرائقهم . ولكنها

في الواقع ليست غريبة إلا في ظاهر الأشياء . إن هؤلاء جميعاً إنما يعرفون أن ليس في الإسلام « رجال دين » يرتزقون باسم الدين وحده ولا يؤدون عملاً آخر منه يأكلون .

إن الدين ليس حرفة في الإسلام ؛ إلا أن يكون اشتغالا بتعليم الناس ، شأنه شأن أية مادة من مواد المعرفة الإنسانية الأخرى . أوقضاء في أحوالهم المختلفة ، شأنه شأن أى تخصص في عمل من الأعمال . وإن هؤلاء جميعاً يعرفون أن الإسلام يطارد الدجالين ، الذين يجمعون حوله الترهات والخرافات ، فالإسلام عقيدة بسيطة واضحة ، لا تعتمد على المعجزات والكرامات والشفاعات والدعوات . إنما تعتمد على العقيدة المستقيمة ، والسلوك النظيف ، والعمل الصالح ، والجد والإنتاج .

ولو حكم الإسلام فسيكون أول عمل له أن يطارد المتبطلين الذين لا يعملون شيئاً ويعيشون باسم الدين ؛ والدجالين الذين يلبسون وضوح الإسلام بغموض الأساطير ، ويستغفلون باسمه عقول الجماهير ، وال دراويش الذين لا يعرف لهم الإسلام مكاناً في ساحته ، ولا عملاً في دولته . وهم في مصر كثير جد كثير .

والخترقون من رجال الدين يعرفون أن لهم وظيفة أساسية في المجتمعات الإقطاعية والرأسمالية ، وظيفة ترزقهم الدولة عليها ، وتيسر لهم

مزاوتها والسكسب منها في المجتمع . . تلك هي وظيفة التخدير والتغدير  
بالجواهر الكادحة العاملة المستغلة المحرومة ؛ فأما حين يحكم الإسلام ،  
فيعطى هذه الجواهر حقها ؛ ويكيف المستغلين والمستبدين عنها ؛ ويحدد  
الثراء الفاحش الذي يؤدي بمجرد وجوده نفوس المحرومين الممنوعين . .  
حين يتم هذا فما وظيفة هؤلاء المحترفين في المجتمع ؟ وما مكانهم في الدولة ؟  
وما عملهم مع الجماهير ؟

إن حرفة الدين جزء من النظم الاجتماعية المختلة ؛ وقطعة أصيلة  
من أجهزة الحكم فيها ؛ فإذا صحت تلك الأوضاع ، وسلمت تلك  
الأجهزة ، فحرفة الدين تصبح بلا طلب ولا ضرورة ؛ لأن الدين ذاته  
سيستحيل عملا وسلوكا ، ونظاما ومجتمعاً ؛ ولا يظل أقوالا وشعائر ،  
وتمتمة وتراتيل .

وتلك حقيقة واضحة لا يدركها أولئك المحترفون بأفكارهم  
وعقولهم ؛ فهم يدركونها بحسهم وفطرتهم . وما ينبغي أن نشك في  
ذكاء هذا الفريق من الناس ؛ فإن في الكثيرين منهم طاقة كبيرة من  
الذكاء والمهارة والبراعة ، يستغلونها استغلال الحواة ، ويستخدمنها  
استخدام السحرة ، ولو عاشوا في ظل نظام صالح يستغل هذه الطاقة  
استغلالا سليما ، فربما كسب المجتمع منها كسباً عظيماً ! فأما الآن فهم  
مجرد تروس في جهاز الاستغلال . وهم مستنفعون مستغلون بدورهم ؛



وهم يدركون أخطار الحكم الإسلامي ؛ وأقل هذه الأخطار الاستغناء  
عن خدمتهم السلبية التي لا يعرفها الإسلام !

### عداوات المستهترين والمنحليين

لقد انتهينا في مصر إلى مجتمع منحل مستهتر مريض ، بفعل جميع  
العوامل السيئة الناشئة من الاختلال الاجتماعي الذي وصفنا أعراضه  
فيما سبق ، والناشئة كذلك من التيار العالمي المنحدر بين الحربين  
العالميتين الكبيرتين ؛ والحروب بطبيعتها تخلخل بناء المجتمع ، وتجرف  
معهما الاستهتار والانحلال على الأقل بحكم التعرض للخطر والموت ، الذي  
يجعل انتهاب اللذائذ المتاحة أمراً تدفع إليه دوافع الفطرة والضرورة .  
وأيّ ما كانت الأسباب ، فقد انتهينا إلى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ،  
ويطفو على سطحه الاستهتار ، ويبدو الانحلال في كل جوانبه . سواء  
ما يتعلق بالجنس ، وما يتعلق بالخدرات ، وما يتعلق بالذمة والضمير  
والخلق في العمل والسلوك .

هذه الجموع المستهترة المنحلة من الرجال والنساء ، يهوها — من  
غير شك — أن تسمع شيئاً عن حدود الإسلام ، التي تفرع الفاحشين  
والفاحشات ؛ بل عن أوامره ونواهيه التي تكبح النفوس ، وترجر  
الجنّة ، وتمنعهم بحكم العرف وحكم القانون من التبعجج والاستهتار .  
وتدخل الأوكار النسوية المتناثرة هنا وهناك في هذا المجال ، تلك

الأوكر التي تشغل بتفاهاتها الفارغات من النسوة والفتيات ، على سنة الفراغ والتبطل الموحى بكل تافه من الأفكار والأعمال .

ولقد أسلفت أن لا خوف من الإسلام على امرأة فاضلة ، تراول نشاطها الإنسانى فى حدود الشرف والكرامة . ولكن هذه الأوكر التي أعنيها تعرف أن هذا الشرط لا ينطبق على نشاطها ؛ وأن الحرية الواسعة الكريمة التي يمنحها الإسلام للمرأة ، لا تسع ذلك اللون من النشاط !

هذه المجموع من الرجال والنساء ، ومن الشبان والفتيات ؛ هذه الجوع التي لا تجد فى الحرية الواسعة الكريمة التي يتيحها الإسلام للشرفاء والشريفات ، كفاية لنشاطها . . تفزع من حكم الإسلام ، بحاسة الخوف على الذات ، وحب السلامة ، والأمن الذي تيسره لها الأوضاع الاجتماعية القائمة ، بما فيها من انحلال واختلال . فهي إذن بطبيعتها عدوة لحكم الإسلام الذي ليس فيه لها أمان !

وتملك هذه الجوع نوادى وصحفاً ، كما تملك نفوذاً فى جهاز الحكم ومرافق المجتمع ؛ بل إن نفوذها ليفوق كل نفوذ آخر فى هذه البلاد ! إنه النفوذ الذي يرتكن إلى شهوات الجسم ونزوات الجسد ، وإلى المال ، وإلى الحكم ، ويستخدم كل هذه القوى فى مقاومة كل نظام يمكن أن يحد من هذه الفوضى ، وذلك الفساد .

وما زلت أذكر منذ سنوات كلمة أحد الوزراء في ذلك العهد ، في رواق من أروقة مجلس النواب ، وقد خرج في أثناء مناقشة حادة حول « إلغاء بيوت الدعارة العلنية ومكافحة بيوتها السرية » . . . قال — لا بارك الله له في بدن ولا عافية ! — « ونحن إذن أين نذهب ؟ » وأتبعها بقهقهة غليظة تابعه فيها الذبول والأذئاب !

مثل هذا الوزير كثيرون في مصر . . . وكثيرات ! يسمون هذه الفوضى الحيوانية السائدة في مصر حرية ؛ ويسميها بعضهم تقديما وحضارة ؛ ويباهي بالحدث فيها بشعور الحيوان المنطلق الشهوات . وبعضهم يسميها طلاقة فنية ؛ لأن الفن في نظرهم لا يكون إلا إباحية قدرة مريضة ؛ وكأن الفن لا يعمر روح « إنسان » !

وما أريد أن أخط هنا خطبة منبرية في الوعظ الشريف ، كالتى صاغتها أقلام السادة الأجلاء من كبار العلماء ! ولكنى أريد أن أدل على أن اختلال المجتمع المصرى قد آتى كل ثماره الخبيثة العفنة السكرية ؛ وأن الحكم الإسلامى سيتولى علاج هذه الثمار باجتثاث الأصل الذى يطلعها ، بل بتطهير التربة التى تنبت فيها .

والذى أريد التنبيه إليه هنا أن نصيباً عظيماً من الضجة القائمة ضد حكم الإسلام ، إنما ينبعث من المواخير والأوكار والجيف الطافية على وجه ذلك المستنقع الآسن الفسيح . المستنقع الذى لا يخوض فيه



للصوص والسكارى والنخاسون والرقيق الأبيض فحسب ، بل تخوض فيه رؤوس كبيرة كثيرة في هذا البلد ، ويموتات فوق مستوى الشبهات ! فإذا سمع الناس هذه الضجة ضد حكم الإسلام ، ورأوا احتفالا بمشيرها الأقزام ، فليعرفوا أن الزفة ليست للقرمز الذي يلبس الريش ؛ ولكن للمستنقع الذي تخشى ديدانه من المطهر الفتاك !

### عداوات الشيوعية والشيوعيين

الشيوعية دعوة قاست من رجال الدين الأميين ، وهي تكافح لتحطيم حكم القياصرة ، وإعطاء الجماهير ضروريات حياتها التي كانت محرومة منها .

وهي نظرية فلسفية تنكر أن يكون في هذه الحياة مؤثر في سيرها ، خارج عن مادتها ؛ فهي تنكر منذ اللحظة الأولى أن يكون هناك إله ، ليس كمثله شيء في هذه الحياة .

وهي تقرر أن المؤثرات في سير التاريخ كلها ناشئة من الماديات الواقعية . فهي تنكر منذ اللحظة الأولى أن يكون هناك رسل يوحى إليهم . وهي تعتنق مذهب التفسير المادى للتاريخ . فهي تنكر منذ اللحظة الأولى أن يكون للأفراد — رسلاً أو أبطالاً — أدوار إنشائية في تطور المجتمع .

وهي — على ما فيها في الجانب الاقتصادي من موافقات كثيرة لبعض النظم الإسلامية — تناقض فكرة الإسلام الأساسية عن السكون والحياة والإنسان ؛ وتعاديه عداً شديداً بسبب هذا الاختلاف الأساسي في طبيعة التفكير .

والشيوعية تعد نفسها في مرحلة حرب وكفاح ؛ فكل عقيدة فيها جانب للروح ، وفيها حساب لله ، تعدها الشيوعية عدوة لها ، ولو كانت هنالك مشابه كثيرة في الجانب الاقتصادي بينهما . بل إن الشيوعية لتعادي الإسلام أكثر مما تعادي المسيحية ؛ لأن المسيحية لم تعد قوة إيجابية في طريقها ، ولأن الإسلام يملك أن يحقق عدالة اجتماعية اقتصادية — بجانب احتفاظه بالله في العقيدة واحتفاظه بالروح في الحياة — ومثل هذا خطر كل الخطورة على الدعوة الشيوعية التي تعتمد أول ما تعتمد على سوء الأحوال الاجتماعية ؛ ويأس الجماهير من أن تجد لها طريقاً إلى العدالة غير الشيوعية .

وقد أحست الشيوعية هذا في السنوات الأخيرة ؛ فأخذت تجند لمحاربة الدعوة إلى الحكم الإسلامي جهودها ، وتبث ضد هذه الفكرة دعايتها . وهذه الدعاية تأخذ طريقها في شعبتين :

الشعبة الأولى : هي تشويه صورة الحكم الإسلامي ، مستغلة تلك الصورة المزورة للحكومة الإسلامية في بعض الشعوب الشرقية . وبيان

عدم جدية هذا الحكم ؛ وغموض الأسس التي يرتكن إليها ، وصلاحيية هذا الغموض للتأويل والاستغلال ضد الجماهير ، وضد الحرية والمفكرين الأحرار .

والشعبة الثانية : هي الإلحاح في القول بأن العالم ينقسم فقط إلى كتلتين اثنتين : الشرقية والغربية . وأن عدم الانضمام إلى الجبهة الشرقية ، معناه تقوية الجبهة الغربية . وكذلك أى تفكير في إيجاد كتلة ثالثة ، معناه تجزئة القوى مما يقوى جبهة الرأسمالية !

ولقد كشفنا ما في هذا القول وذاك من مغالطة ، وما يخفى وراءه من أغراض . والمهم أن يفتن الناس حين يسمعون الدعوة ضد الحكم الإسلامى إلى بواعثها الحقيقية .

إن الشيوعيين يتعصبون لمذهبهم تعصباً يجعله في نظرهم غاية في ذاته ، لا وسيلة لتحقيق عدالة اجتماعية ؛ لذلك يهملهم أن يسدوا في وجوه الجماهير أى طريق آخر يمكن أن يحقق لها عدالة حقيقية ، كي لا يبقى هناك إلا طريق واحد : طريق الشيوعية .

ولا يجوز أن نفعل كذلك أن ليس التعصب المذهبي وحده هو الذى يملئ على دعاة الشيوعية خطتهم ، بل إن الدولة الروسية لها من ذلك شئ ! فالشيوعية وسيلة إلى السيطرة على كل دولة تعتنقها ؛ وليس مجرد اعتناقها كافياً إن هى رفضت النفوذ الروسى . وهذه يوعوسلافيا



شيوعية لا يطعن أحد في شيوعيتها ؛ ولكنها رفعت رأسها أمام ذلك النفوذ ، فحلت عليها اللعنة ، ولم تشفع لها شيوعيتها !

وفي مصر تتدخل عوامل أخرى غير التعصب للشيوعية ؛ ويجب أن نحسب لهذه العوامل حسابها . . إن في مصر شيوعيين لأنهم يحبون الشيوعية ، بل لأنهم يكرهون الإسلام ، فكل ما يحارب الإسلام إذن هو لهم صديق !

وهم يتظاهرون أمام المغفلين من المسلمين بأنهم مجردون من كل تعصب ديني ، لا يحفلون كل الأديان : وهم في حقيقتهم صليبيون ، ينصبون للإسلام وحده « وإذا خلّوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » !

وما أحب أن أفيض في هذا الموضوع ، ولكن أحب أن أنبه كل مسلم من الأبرياء الذين تخدعهم هذه المؤامرة إلى أن يتأكد من الباعث الأول على الطعن في الإسلام وحكم الإسلام . فقد لا تكون الشيوعية إلا ستاراً لذلك الطعن الخبيث . وأحب لكل فقي من فقيان المسلمين أنزلت خطاه إلى خلية شيوعية ، أن يتلفت ، فإن وجد فيها معه أحداً من هؤلاء الصليبيين المستترين ، فليأخذ حذره أنها عمل لحساب الصليبية ، لا لحساب الشيوعية ، ولا العدالة الاجتماعية .

ووددت أن انتهى إلى هذا الحد في الفصل ، لولا دعاية تنبض

في خاطري حول بعض شيوعيينا المصريين الأعزاء ؛ الذين يتحدثون  
أحياناً ضد حكومة الإسلام !

معظم هؤلاء الأعزاء ، يتناولون الحديث في هذه الشؤون ، وهم  
« منسجمون » في خدر الحشيش اللذيذ ، وأمامهم جمرات من الفحم  
وحولها دخان النرجيلة المتلوى !

هؤلاء الرفاق المريحون ؛ لا يريدون مواجهة الواقع السيئ في دنيا  
الناس — ونحن نشفق عليهم فهم ضحايا بريئة لذلك الواقع الأليم —  
وهم يهربون منه في خدر الحشيش اللذيذ ؛ يحملون الأحلام المريحة عن  
« بابا ستالين » وهو يدس لهم في « شجرة الهدايا » عدالة اجتماعية  
لذيذة ، لا يتعبون حتى في تناولها .

فألهم إذن ولهذا الإسلام المتعب ، الذي يكلفهم جهداً ومشقة ؛  
بل ويفرض عليهم الصحو والعمل . . دعنا ياعم دعنا من هذا الإسلام ،  
ومن متاعبه الجسام . وغداً نصحو من المنام ، على وقع خطوات  
« ستالين الهمام » .

## والآن أينما الجماهير.....

الآن ينبغي أن تقول الجماهير السكادحة المحرومة الغبونة قضيتها بأيديها . ينبغي أن تفكر في وسائل الخلاص . . . وتختار .

إن أحداً لن يقدم لهذه الجماهير عوناً إلا أنفسهم ؛ فعليها أن تعي هي بأمرها ، ولا تنطلق إلى معونة أخرى .

إنه لا الأحزاب التي تتولى الحكم جماعة أو فرادى ؛ ولا الصحافة الحزبية أو غير الحزبية ؛ ولا هيئة الأمم ، أو إحدى دولها الرأسمالية ؛ ولا الشيوعية كذلك في النهاية . . . إنه لا أحد من هؤلاء جميعاً سيمد يده إلى الجماهير السكادحة في مصر ، إلا أن تمد تلك الجماهير يدها إلى قضيتها .

ونظرة إلى ظروف هذه المؤسسات وحقيقتها تكفي لإقناع من يريد الاقتناع ، أن الاعتماد على أى منها في نصرته قضية الجماهير ، إن هو إلا مجرد تواكل وغفلة وتقصير .

\*\*\*

هذه التشكيلات الحزبية . من تمثل ؟ إنها لا تمثل الجماهير قطعاً لا بعقليتها ولا بمصلحتها ولا بظروفها . من هم الذين يشترط القانون أن يكونوا شيوخاً في البرلمان ؟ إنهم الذين يملكون نصائباً معيناً من المال !



أفى تلك الملايين من الجماهير السكادحة واحد فقط تنطبق عليه  
هذه الشروط ؟

ومن هم الذين تسمح لهم الظروف أن يكونوا نواباً فى البرلمان ؟  
إنهم الذين يملكون أولاً أن يدفعوا التأمين وهو مائة جنيه وخمسون ؛  
ثم يملكون ثانياً أن ينفقوا آلاف الجنيهات على المعركة الانتخابية ،  
وسماستها وحفلاتها وتنقلاتها وولائمها وذيولها ؛ ثم يملكون ثالثاً أن  
يتصلوا بحزب يرشحهم ويسندهم ويتقاضى منهم جزاء الترشيح ضريبة  
خزائنه التى تتراوح بين المئات والألوف . . أفين الجماهير السكادحة  
من تنطبق عليه هذه الشروط ؟

كلا ! وليس وراء الجماهير الفقيرة المستغلة تنظيات وتشكيلات  
قوية من النقابات والائتلافات ، تتولى إدارة المعركة الانتخابية بأموالها  
وبنفوذها ، كى تقدم إلى البرلمان مرشحين منها ، يعبرون عن آلامها  
وأمالها . . .

وإذن فستبقى الجماهير السكادحة المحرومة المغبونة فى جانب ، وتبقى  
التشكيلات الحزبية والبرلمانية فى جانب ؛ ويبقى الصراع بين المصالح  
المتعارضة قائماً . إلى أن تتولى الجماهير أمر نفسها ، فتنشئ من  
التشكيلات ما يملك الانتصار فى معركة الانتخابات وغير الانتخابات .  
وإلى أن يتم هذا فلا ينبغى أن تعلق الجماهير أملاً على الصراع الحزبى

القائم ، ولا أن تتطلع إلى حزب دون حزب ، ولا أن ترجو النصفة على وثبة حزب من هذه الأحزاب على كراسى الحكم ؛ بانتخاب أو بغير انتخاب .

هذه الحقيقة تؤيدها كل تجارب الماضي الحزبي والبرلماني في مصر منذ ربع قرن مضى . . إن هذا الصراع الحزبي لم يكن مرة واحدة على مصلحة الجماهير ؛ وإنما كان دائماً على كراسى الحكم ، وما وراءها من معانم ، ومن إرضاء وإغناء للحاسيب والهاشقة والأقارب والأصهار ! فأما حين يلوح في الأفق شبح الخطر على مصلحة صغيرة من مصالح الرأسمالية ، فينسى المتصارعون أحقادهم ، ويترك المتخاصمون خصوماتهم ، ويقف الجميع صفاً واحداً في وجه ذلك الخطر الصغير ؛ الوفدي والسعدى والدستورى سواء ، يدافعون عن مصالح الرأسمالية المهددة ، ضد مصلحة الجماهير المحرومة .

وما على من يتشكك في هذه الحقيقة البارزة إلا أن يعود إلى مضابط البرلمان ، عند نظر مشروع الضريبة التصاعدية ، أو مشروع الأرباح الاستثنائية ، أو مشروع ضريبة التركات ، أو مشروع نقابات العمال ، وبخاصة مسألة حرمان خدم البيوت من حق تكوين النقابات . . أو كل مشروع يحمل رؤوس الأموال شيئاً من التكاليف التي تحملها رؤوس الأموال في كل جوانب الأرض ، إلا في أرض الإقطاع .

إنه سيجد المعارضين يمثلون أشخاصهم ومصالح طبقتهم ولا يمثلون أحزابهم وهيئاتهم . ذلك أنهم جميعاً رأسماليون قبل أن يكونوا وفديين أو سعديين أو دستوريين !

وها نحن أولاء أمام مثل قريب ، يدركه كل فرد في هذه الأمة ، لأنه يتجرعه ويكتوى بناره : هانحن أولاء أمام الغلاء الفاحش ، الذى يفرغ فاه كالغول ليلتهم الأخضر واليابس ، ويمتص دماء الملايين فى نهم بشع لتنتفخ بها الأوداج ، وتتخم بها الكروش . . . فإذا صنعت الدولة وماذا صنع البرلمان لمكافحة ذلك الغول الجبار ؟

بيانات وأحاديث ، ثم بيانات وأحاديث ؛ ثم حملات تفتيشية على الأسواق . الأسواق هنا فى القاهرة حيث الحلقة الأخيرة وحدها من سلسلة الغلاء الطويلة .

إن الغلاء لا ينبع هنا بل يصب . والقائمون بالأمر يعرفون ، ولكنهم لا يجروئون على أن يمسوا ذلك المنبع بسوء ، لأنهم هم ممثلوه والمتنفعون به ، والمشترون فيه !

إن أقواتنا وأشياءنا تأتى لنا من مصدرين : مصدر داخلى مما نزرعه ونريه ونصنعه فى الداخل ؛ ومصدر خارجى مما نستورده من مأكولات ومصنوعات وأدوات وخامات .

والدولة تعلم أن المالك يؤثر الفردان الواحد بخمسين وستين جنيتهاً



إلى ثمانين . فإذا تنظر إلا أن تكون أسعار الحاصلات الناشئة من هذا  
القدان عالية ، وأسعار الماشية التي ترعى هذا القدان عالية ، وأسعار  
منتجات ألبانها كلها عالية . . . وما الذي يجدى أن تحارب الغلاء هنا  
في القاهرة ، وتدعه في منبعه يتزايد ويتصاعد في سعار ؟

إن الحل ميسور : أن تتحكم الدولة في التصدير والاستيراد ،  
وأن تشتري لحسابها كل الحاصلات التي تصدر إلى الخارج وفي أولها  
القطن بسعر يجزى الزراع ، ثم تبيعها هي لحسابها بالأسعار العالمية ،  
فأما الحصة الناشئة من الفرق ، فتساهم بها في تخفيض سعر الواردات  
حين تباع المستهلك ، وتسدها الفرق بين ثمن شرائها المرتفع و ثمن بيعها  
المناسب للجماهير .

وبعد ذلك لا قبله تجدى التسعيرة ، وتجدى حملات التفتيش ؛  
ولكن من الذي يفعل ذلك . أهى حكومة الرأسمالية وبرلمان الرأسمالية ؟  
ولحساب من ؟ لحساب الجماهير ، ومصلحة الجماهير ؟ !

والمشروعات المعطلة التي لا تنتهى أبداً ؛ بينما الثروة القومية تنهار ،  
ومستوى الدخل الفردى ينحط ، والمتعطلون يملأون جنبات الوادى .  
لم لا تنفذ ؟ لأن تنفيذها يقتضى مالا ، والمال في جيوب الأثرياء . والأثرياء  
في الوزارة وفي البرلمان !!

هذا والجماهير تتصايح : يسقط ويحمى . والحواة يلهونها بالجلأ

والوحدة . والاستعمار لا يحفل هذا الصباح ، لأنه يعلم جيداً أن هذه بضاعة معدة للتصدير إلى الداخل ؛ وأن مصالحه الأساسية مصونة ، لا بجيوش الاحتلال ، ولكن بالمخالفة الطبيعية التي بينه وبين رؤوس الأموال ! فما عليه أن تهتف الجماهير حتى تتمزق حناجرها ؛ وهذه الجماهير لا تملك من الأمر شيئاً ؛ والذين يملكون الأمر كله يحرسون على بقائه سنداً لهم ضد الجماهير ، التي ستفرغ إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في اللحظة التي تفرغ فيها من تسوية القضية المصرية .

إن الغفلة والبله هما اللذان يصوران للجماهير في مصر أن حزبا مافي هذا البلد يرغب رغبة حقيقية في الجلاء والوحدة ، وفي حل القضية المصرية على أساس يبعد نفوذ الاستعمار ، وقوة الاستعمار . وإن هذه الأحزاب جميعاً لتعلم أن تلك القضية هي « عدة الشغل ! » التي تلعب عليها ؛ فضلاً على أن الاستعمار هو خط الدفاع الأخير لحماية المصالح الحقيقية التي تمثلها !

كل ما هناك من فروق ، هو فروق الأساليب التي تخاطب بها الجماهير . . . فرجل كصديق لم يكن يخفي حرصه على ربط مصر بمجلة الإمبراطورية عن طريق الدفاع المشترك . لأن الرجل كان يعرف حلفاء الطبيعيين ، وحلفاء اتحاد الصناعات الذي كان على رأسه . . . فأما الآخرون فقد يهتفون مع الجماهير : يسقط الاستعمار .. كي تذهب

الجاهير فتستقيم ؛ أو لتشق حناجرها بالهتاف للمجاهدين ! وذلك اعتماداً على غفلة الجاهير الساذجة ، وأنها لا تدرك المخالفة الطبيعية بين مصالح الاستعمار الحقيقية في هذه البلاد ، والمصالح الحقيقية التي تمثلها كل الأحزاب !

فأما الصحافة فليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجاهير ضد الطغاة والمستغلين ، ولا ضد الاستعمار ووراءه الرأسمالية العالمية القوية . إن الصحيفة مؤسسة تجارية قبل كل شيء ؛ وعليها أن توازن ميزانيتها على الأقل لتعيش ؛ وقد أصبحت المنافسة الصحفية عنيفة في دائرة القراء المحدودين ؛ وهذه المنافسة تقضي تحسينات صحفية ، وتكاليف متصاعدة ، وموارد مالية كبيرة .

والرواج في التوزيع لا يقلل من نفقات الجريدة ، بل يزيد خسائرها إذا وقفت عند حدود البيع . ذلك أن تكاليف النسخة الواحدة من أية جريدة كبيرة ، يومية أو أسبوعية ، أكثر من السعر الذي تباع به هذه النسخة في السوق . وهذه حقيقة قوية يجب أن تكون في الحسبان ، ليعرف الجمهور الفقير الكادح أنه ليس هو الذي يمول الجريدة الرائجة بقروشه ومالائه ! إنما تعتمد هذه الصحف في وجودها وبقائها وربحها على موارد أخرى غير القروش والملايم . تعتمد أولاً على الإعلانات . وهذه الإعلانات تملكها شركات رأسمالية ضخمة ، تخدم بدورها



المؤسسات الرأسمالية التي تتولى الإعلان عنها . . وتعتمد ثانياً على المصروفات السرية المؤقتة أو الدائمة : المؤقتة التي تدفعها الوزارات لصحافتها الحزبية ، أو للصحف التي تريد شراءها ، أو ضمان حيادها ، ( وهي في العادة دفعات ضخمة ) . والدائمة التي تتولى إدارة المطبوعات صرفها إما للصحف وإما لصحفيين بصفة دائمة على اختلاف العهود ، لخدمة الأغراض الحكومية الدائمة التي لا تتعلق بحزب دون حزب . . وتعتمد ثالثاً على المصروفات السرية لأقلام الخبايا الدولية ، وبخاصة إنجلترا وأمريكا . . ذلك عدا نفقات الدعاية المباشرة للشركات والبيوتات ولبعض الجهات . . .

هذه الموارد هي التي تعوض الفرق بين تكاليف النسخة وسعرها الذي يتباع به في السوق . ثم تشتري المطابع الضخمة ، وتبنى الدور الفخمة ، وتوفر وسائل الدعاية والإعلان للصحيفة . فأما الرواج وحده بارتفاع مقطوعية البيع ، فقد كان من شأنه أن يضاعف خسائر هذه الصحف لا أن يكون سبباً للربح ، فكلما زاد عدد النسخ زادت الخسارة !

إن فائدة الرواج في مقطوعية البيع فائدة غير مباشرة ؛ ذلك أنها ترفع سعر الإعلان في الصحيفة ؛ وترفع سعرها في دائرة المصروفات السرية ، داخلية كانت أو خارجية ، وهذه هي كل قيمة الرواج بالنسبة إلى أية صحيفة .

فإذا عرفنا هذه الحقيقة أدركنا أن الصحافة ليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجماهير . إنما هي تعطي الجماهير بقدر القروش والملايم التي تدفعها ثمناً للنسخ الموزعة ، وتعطي الممولين الحقيقيين : سواء كانوا أصحاب المؤسسات الرأسمالية ، أو الجهات الحكومية ، أو أقلام المخابرات الدولية بقدر جنيتها ودولاراتها ؛ وتقسم جهودها بين الفريقين قسمة بارعة تناسب غفلة الجماهير وسذاجتها ، وذكاء الجبهة الأخرى وخبرتها !

فأما صحافة الرأي التي تعمل للجماهير السكادحة وحدها ؛ فهي مطاردة من الدولة ، ومن الرأسمالية المحلية والعالمية ، ومن قوى الاستعمار جميعاً . . . ثم هي مطاردة من الجماهير الساذجة ذاتها ؛ لأن مواردها لا تسمح لها بالمظاهر الصحفية الخلاقة ، ولأن ضمائرنا لا تسمح لها بصور الأخاذ والنهود ، وبتهمة الجماهير وتخديرها بالدرشة المسلية اللذيذة ! وعندئذ تعرض عنها الجماهير نفسها ، ولا تقف بجانبها بقروشها وملايمها ؛ على حين تستند الصحافة الأخرى إلى الجنيتات والدولارات المتدفقة من الجبهة الأخرى ؛

إن صور الأخاذ والنهود هي التسلية التي تقدمها صحافة الرأسماليين للجماهير المحرومة ؛ كي تلهيها عن استمتاع الرأسماليين الفاجر بتلك الأخاذ والنهود الحقيقية لا بصورها ! . . . والدرشة الفارغة التي تملأ صفحات وصفحات ، هي الخدر الذي تسرق به هذه الصحف جهد القارئ

واهتمامه ، لتشغله عما هو فيه من بؤس وحرمان . وما يمكن أن يخدم  
الرأسمالية أحد ، كما يخدمها بهاتين الوسيلتين الخبيثتين ؛ اللتين تقبل  
عليهما الجماهير البلهاء إقبالها على الحشيش والأفيون !

\*\*\*

واليوم تبشر الرأسمالية الجماهير المحرومة ببشارة جديدة . . تبشرها  
بجهود هيئة الأمم في محاربة الفقر ؛ وبحلقات الدراسات الاجتماعية  
التي تشرف عليها لدراسة مشكلات الجماهير ؛ وبالنقطة الرابعة في  
برنامج ترومان . .

فماذا بالله يريد الجاحدون في هذا البلد العاق ، الذي لا يعرف  
الفضل ، ولا يشكر الجميل ؟ .

فأما الرأسمالية في هذا البلد فهي حريصة على الاستفادة من جهود  
هيئة الأمم هذه ؛ وهي حفية بحلقات الدراسة الاجتماعية التي تعقدتها ،  
وتنشر في الصحف أخبارها ، وتشغل بها الناس أياماً وأسابيع . أليست  
وسيلة أساسية من وسائل تلهية الجماهير وتخديرها وإنامتها إلى حين ؟ !  
وصحافتها لا تنى تنشر بالخط العريض تلك الأنباء الناطقة بعطف

المنظمات الدولية واهتمامها البالغ بقضية العدالة الاجتماعية في مصر .  
أليست وسيلة بارعة من وسائل استمالة الجماهير إلى الاستعمار ،  
لتلقى عليه أعباءها النقال ، وتسكل إليه تحقيق العدالة الاجتماعية التي  
تتلذذ عليها ولا تراها ؟ !



ولسكن الجماهير ينبغي أن تعلم أن المصلحة المشتركة بين الرأسمالية العالمية تعقد بين تمثيلها جميعاً في الشرق والغرب حلقاً طبيعياً ، ضد الجماهير ومصالح الجماهير . وأن المصالح المشتركة بين الاستعمار والرأسمالية المحلية تعقد بينهما كذلك محالفة طبيعية قوية الأواصر .

ينبغي أن تدرك الجماهير أن الاستعمار لا يجب أن يواجه الجماهير بوجهه السكّاح ؛ فلا بد له من ستار ، يحكم بواسطته ، وينفذ أغراضه عن طريقه ، ويضمن مصالحه بواسطته . هذا الستار هو الطبقة الرأسمالية الحاكمة ، التي يكمل إليها مقاليد الأمور ويستريح ! ومحال أن يحاربها أو أن تحاربه إلى الحد الذي يقبل أو يصف ؛ ويمكن للجماهير .

ينبغي أن تعرف الجماهير أن الاستعمار منذ قدومه قد عمل على تكوين هذه الطبقة . وأن الخونة الذين مهدوا له الطريق ، وخذلوا الجيش المصري أو خانوه أو غشوه ، قد أغدق عليهم الاستعمار ومكّن لهم في الأرض ؛ وذرياتهم اليوم من أصحاب البيوتات في مصر ومن ذوى الضياع الواسعة ، ومن يسمون في هذا البلد المسكين : « أصحاب البيوت الكريمة العريقة ! »

وأخيراً يجب أن تعرف الجماهير أن الاستعمار حريص على تجويع الجماهير . لأنه يعرف — كما قال ممثله مرة « جورج لويد » في كتابه : إن الرخاء في سنة ١٩١٩ هو الذي شجع على قيام الثورة المصرية .

لهذا يجب أن تجوع الجماهير في مصر ، كي لا تفيق من البحث عن  
اللقمة ، فتتجه للثورة على الاستعمار من جديد !

\*\*\*

بقيت الشيوعية التي يحلم بها الكسالى في مصر على دخان الحشيش  
وخدره اللذيذ !

هم يقولون لك : لا فائدة ! فلننتظر الخلاص على يدي  
« بابا ستالين » !

إن الرأسمالية ستحارب كل دعوة إلى العدالة الاجتماعية ، وتناهضها  
بالقوة وبالحيلة وبالمال ، وبشراء الذمم واستغلال الجماهير .  
كل هذا صحيح ! ولكن متى انتصرت قضية واحدة في تاريخ  
الدنيا بغير صراع قصير أو طويل ؟

إن الشعوب التي لا تكافح من أجل الحرية لن تستحق الحرية .  
وإذا نحن جالسنا مستريحين ، ندخن الحشيش ، أو نحلم بالأمانى ، فستأتى  
الشيوعية — لو جاءت — لتجدنا ذبولاً ذليلة ، تسومنا سوم العبيد .  
إن الكرامة الإنسانية وحدها توجب علينا أن نعمل شيئاً نستحق  
به الخلاص والحرية . وإلا فسندخل من ذل إلى ذل ، يتغير عنوانه ،  
ويتبدل أسياده ، والعبيد هم العبيد !

\*\*\*

والآن أيتها الجماهير .. لقد تبين أن أحداً لن يمديه إليك ما لم  
تمدى أنت يدك إليك ! وأن الطرق جميعاً لا تؤدي إلى الخلاص  
الحق ، اللهم إلا طريقك الواحد الأصيل !

أيتها الجماهير . . لقد تعين لك طريق الكرامة الإنسانية ،  
وطريق العدالة الاجتماعية ، وطريق المجد الذي عرفته الأمة الإسلامية  
مرة ، والذي تملك أن تعرفه مرة أخرى . . لو تفقّق .

أيتها الجماهير . . ها هو ذا الإسلام حاضري بلّبي كل راغب في العزة  
والاستعلاء والسيادة . وكل راغب في المساواة والحرية والعدالة . وكل  
من يؤمن بنفسه وقومه ووطنه . وكل من يشعر أن له مكاناً كريماً  
في ذلك الوجود .

أيتها الجماهير . . هذا هو الطريق .. هذا هو الطريق ..

---



فهرس

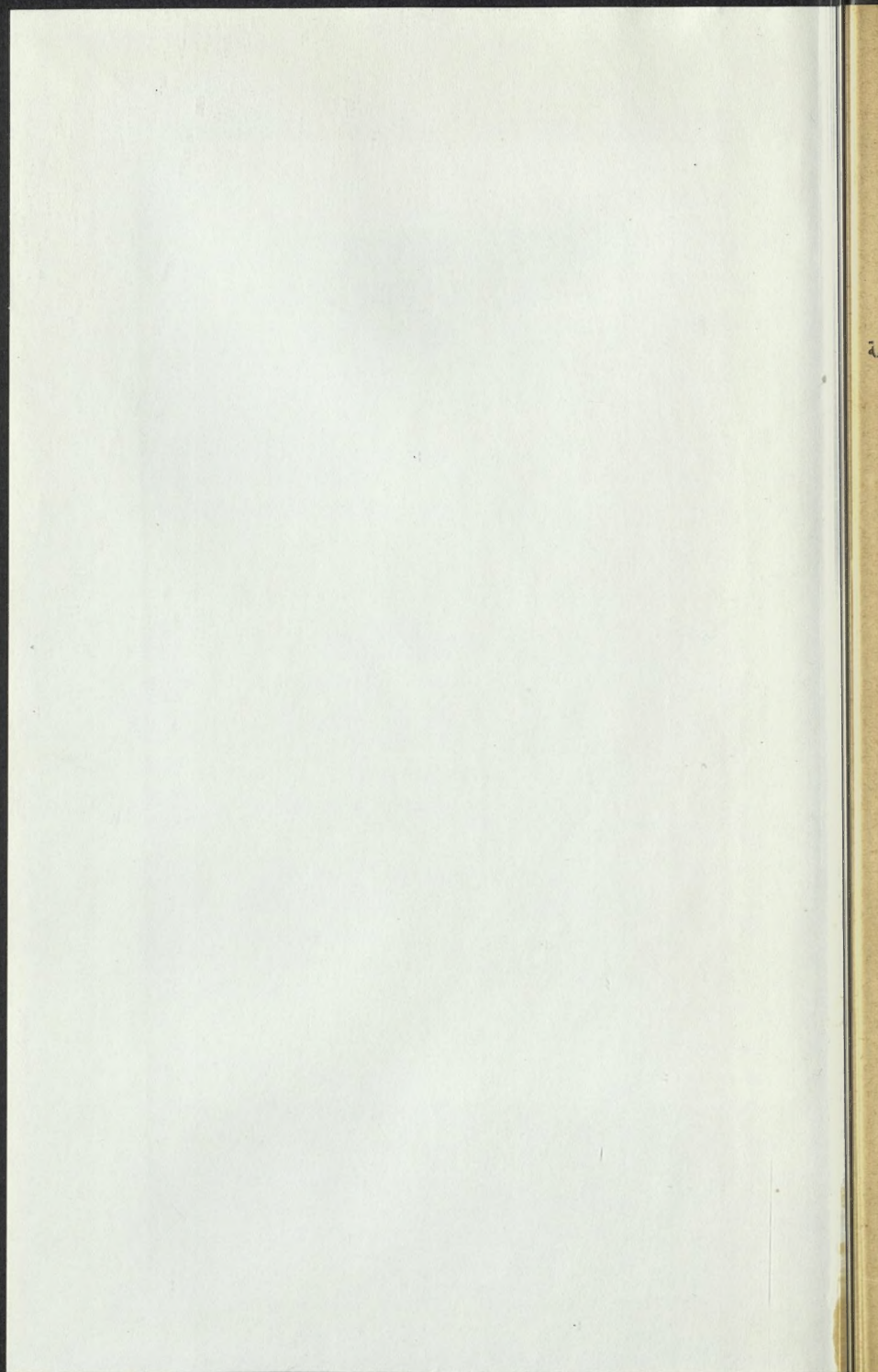
äxä

## كتب للمؤلف

- ١ — معركة الإسلام والأسمالية ( طبعة ثانية ) دار الإخوان للصحافة والطباعة
- ٢ — العدالة الاجتماعية في الإسلام ( « ثالثة » » » » )
- ٣ — السلام العالمى والإسلام ( « أولى » ) مكتبة وهبه بعابدين
- ٤ — التصوير الفنى فى القرآن ( « ثالثة » ) دار المعارف
- ٥ — مشاهد القيامة فى القرآن ( « ثانية » ) دار المعارف
- ٦ — النقد الأدبى : أصوله ومناهجه ( « أولى » ) دار الفكر العربى
- ٧ — كتب وشخصيات ( « » » ) نقد
- ٨ — أشواق ( « » » ) دار سعد مصر
- ٩ — طفل من القرية ( « » » ) لجنة النشر للجامعيين
- ١٠ — المدينة المسحورة ( « » » ) دار المعارف
- ١١ — الأطياف الأربعة ( بالاشتراك مع إخوته الثلاثة ) لجنة النشر للجامعيين
- ١٢ — الشاطئ المجهول ( نقد )
- ١٣ — مهمة الشاعر فى الحياة ( نقد )
- ١٤ — نقد كتاب مستقبل الثقافة ( نقد )

## الكتب التالية

- ١ — فى ظلال القرآن
- ٢ — نحو مجتمع إسلامى
- ٣ — أمريكا التى رأيت
- ٤ — لحظات مع الخالدين
- ٥ — حلم الفجر ( شعر )
- ٦ — قافلة الرقيق ( شعر )





KUB LIBRARY

## DATE DUE

[illegible]

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00511220



